الدكتور عدنان علي رضا النحوي

المسؤوليَّة الفرديَّة في الإسلام

أُسسها، تكاليفها، تميُّزها

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي
للنشر والتوزيع



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

المسؤولية الفرديّة
في الإسلام
أسسها ، تكاليفها ، تميّزها

الدكتور
عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحــــوي
للنشر والتوزيع


دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

المسؤولية الفرديّة في الإسلام أسسها وتكاليفها وتميزها .. الرياض

... ص ، ١٢×١٧ سم

ردمك ٣-٤٧-٦٨٧-٩٩٦٠

١- الإسلام أ- المسؤولية «فقه إسلامي»

ديوي ٢١٩ ١٩/٩١٧

رقم الإيداع : ١٩/٩١٧

ردمك : ٣-٤٧-٦٨٧-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي للنشر والتوزيع

تلفون وفاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الإهداء

إلى المؤمنين الذين يحملون رسالة الله ، إلى الذين عرف كلٌّ منهم التكاليف الربانية والمسؤولية التي عليه ، لينطلق هؤلاء يوقظون الناس وينصحونهم ، حتى ينهض كل إنسان إلى مسؤولياته التي سيحاسَب عليها يوم القيامة بين يدي الله .

الافتتـــــــــاح

﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرّة وتركتم ماخـوَّلناكم وراء ظهـوركم ومانـرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركـاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ماكنتم تزعمون﴾ [الأنعام : ٩٤]

﴿إن كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهـم وعدّهم عدّا * وكلهم آتيه يـوم القيامة فردا﴾ [مريم : ٩٣-٩٥]

﴿ فـــاستمسك بـــالـذي أوحـــي إليك إنك على صراط مستقيم* وإنه لذكر لك ولقـومك وسوف تسالون ﴾ [الزخرف : ٤٣، ٤٤]

﴿ فوربك لنسْألنّهم أجمعين * عمّا كـانوا يعملون * فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾

[الحجر : ٩٢-٩٤]

﴿ولـو شــاء الله لجعلكم أمـة واحـدة ولكن يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء ولَتُسْألُنّ عما كنتم تعملون ﴾ [النحل : ٩٣]

مقدّمة

إن موضوع المسؤولية الفردية في الإسلام من أخطر الموضوعات التي تمس واقعنا اليوم ، ومن أهم الموضوعات التي طرحتُها فيما أَصدرتُ من كتب ومقالات .

فلقد تناولتُ هذا الموضوع من بعض جوانبه في حلقات متتالية في مجلة الدعوة . وتناولته من جوانب أخرى في مجلة الخيرية ، وكان باباً مستقلاً في كتاب : « **بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية** » . وطرقت هذا الموضوع بإلحاح كذلك في كتاب «**منهج المؤمن بين العلم والتطبيق** » ، لبيان منزلة المؤمن بين الحقوق والواجبات ، ولبيان العلاقة بين مسؤولية الفرد ومسؤوليّة الأمة . وكذلك ألححتُ بهذا الموضوع في كتب أُخرى من خلال موضوعات متعددة يرتبط بها هذا الموضوع .

لقد غاب دور المسؤولية الفردية عن واقع المسلمين قروناً طويلة ، حتى جمع التاريخ حشوداً هائلة من المسلمين تطويهم الغفوة والسبات العميق ، في لهو وفتنة ، أو في تيه وظلام ، أو في خدر ونوم ، أو في فاحشة وخمور وسائر المخدّرات ، أو في

عصبيات جاهليّة تأكل الجهود ، وتقتلع الغراس وتسحق الثمار ، أو في أهواء هائجة وشهوات ملتهبة ومصالح مادية طاغية .

لقد كانت هذه الملايين الكثيرة من المسلمين الغافين الغافلين مرتعاً خصباً لأعداء الله . وزاد الأمر أسى أن أهمل المسلمون بعضهم بعضاً حتى لم تعد تجتمع الجهود لإيقاظ النائمين ، وحتى فقدت «**الصحوة الإسلامية**» حقيقة التوجيه وجوهر الإرشاد والنصيحة . وظل الإطراء والمديح مجرّداً من أيّ نصح سبباً في زيادة الغفوة .

ولا أدلَّ على ذلك من أن العالم الإسلاميّ على امتداده تزداد مآسيه ، فتَتَفَتَّح أبوابه إلى الأعداء يسرحون ويمرحون ، والغفاه غفاة ، والغافلون غافلون . ولا أدلَّ على ذلك من ضياع سبعين عاماً أو أكثر من عمل المسلمين في قضيّة فلسطين ، ففقد المسلمون أرضهم فيها وما حقّقوا شعاراتهم المدوّية ، وحقق اليهود أطماعهم ومازالوا ماضين في تحقيق أطماعهم المعلنة والخفية . وخلال هذه السنين الطويلة كان من الصعوبة الكبيرة أن تُقنِع بعض المسلمين بمسؤوليتهم المباشرة الحقيقية

عن فلسطين . ولو شعر أحدهم بهذه المسؤولية لم ينهض إليها النهوض الذي يأمر به الإسلام .

وبناء الأمة المسلمة الواحدة فرض فرضه الله على المسلمين ، وهدف ربانيّ عظيم ، لم يكن يشعر كثير من المسلمين بأهميته ولا بمسؤوليته عن ذلك . إن المسؤولية الفردية في الإسلام هي الأساس العمليّ التطبيقي لبناء الأمة المسلمة الواحدة .

إن قناعة الكثيرين من المسلمين اليوم أن بناء هذه الأمة هي مسؤولية الدعاة أو العلماء ، ذوي السلطة ، وأن باقي المسلمين في الأرض لايحملون شيئاً من هذه المسؤولية . إنَّ وعي المسؤولية الفردية يأتي ليزيل هذا التصوّر الخاطىء من الأذهان ، وليضع المسلم ، كل مسلم ، أمام مسئولياته الحقيقية التي كلفه بها الله ربّ العالمين .

ويجب أن ندرك هذه المسؤوليات لا من مجرَّد خواطر بشرية ، ولكن من نصوص ثابتة في القرآن والسنة ، تبين لنا هذه النصوص أيضاً أن الإنسان محاسَب يوم القيامة عن هذه التكاليف ومدى وفائه بها . وإنها مسؤولية خطيرة في الدنيا ، وحساب في الآخرة . إنها الأمانة التي حملها الإنسان عبادة لله ،

والتي يكون الإنسان ظلوماً جهـولاً إذا تركها . إنها أمانة كبيرة ، ومن أهم أركان هذه الأمانة قيـام الأمة المسلمة الواحدة وحمايتها لتظل ممتدة مع التاريخ .

ومن أهم مـايجب أن نلتفت إليـه ونحن نحاول العـلاج ، أن لاتتحـوّل أساليب العـلاج ووسـائلـه إلى تخدير يشل القـوى ويعطل العـزائم . وإنها لفتة هـامة نحتـاج إلى أن نقف عندهـا اليوم وقفـة طويلـة واعية ، حتى لاتتحـول الشعارات إلى طـاقة عاطفية خالية من النهج والتخطيط ، فتخدّر أو تدمّر .

وقضية أخرى يتميّز بها الإسلام وتبرزها المسؤولية الفردية ، ألا وهي ارتباط الأجيال المؤمنة كلها لتـؤلف أمة مسلمة ممتدة مع العصور كلها ، وليرتبط الماضي بـالحاضر والمستقبل ارتباط إيمان وعلم وتـاريخ ، وارتبـاط نهج وتخطيط ، حتى تمتـدّ المسـؤوليـة الفردية مع التاريخ كله .

وقضية أخـرى ، هي ألاّ تتفتت الدعوة الإسـلامية إلى كتل يصارع بعضها بعضـاً ، فتموت بذلك روابط الدعـوة الإسلامية وخصائصهـا وقواها ، وتفقـد أخوة الإسـلام معناها ومبنـاها ، وتضطرب معاني الإيمان والتوحيـد ، معاني الولاء والعهد والحب

الأكبر ، والفطرة السليمة ، ومعاني الأُلوهية والربوبية ، وتُطوَى معاني المسؤوليّة الفردية في الإسلام . قضايا هامة رئيسة يُثيرُها هذا الموضوع الخطير في واقع المسلمين اليوم ، إثارة تفرض علينا الوقوف وقفة إيمانيّة لنراجع مسيرتنا في مختلف القضايا ، ولنحاسب أنفسنا .

إن المنطلق لوعي المسؤولية الفرديّة في الإسلام ليس من عالم الوهم وَالأماني ، ولا من عالم الشكوى والانين ، ولا من عالم الشعارات التي تخدِّر ولا تجد السبيل إلى تحقيقها .

إن المنطلق الحقيقي هو صِدق الإيمان وصفاء التوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، وصدق العلم بالواقع من خلال منهاج الله . وإن هذا المنطلق الحقيقي لايسمح بأن تكون التكاليف أمانيّ وأحلاماً ، ولكن يفرض أن تكون بذلاً حقيقيا ، وجهداً وجهاداً ، ومجاهدة للنفس ، ومضيّاً على صراط مستقيم ، ليكون الدرب جليّاً والأهداف جليّة .

يبدو أن بعض القارئين لهذا الموضوع - المسؤولية الفردّية في الإسلام - أحسُّوا بخطورة هذا الموضوع في واقعنا اليوم ، وأهميته

وضرورته ، فطلب عدد من القرّاء الكـرام أن أُخرج هذا الموضوع في «**كتاب**» خاص يسهّل دراسته ونشره والتوعية به .

ولذلك أسعى أن أخرج هذا الموضوع في كتاب خاص به ، مع مـوضـوع هـام أيضـاً : «**واقع المسلمين بين العـلاج والتخدير** » ، وأختم الكتاب بموجـز للنظريّة العامـة للدعوة الإسلامية ، النظـرية التي تنطلق منها جميع الـدراسات والجهود بإذن الله .

أسأل الله العفـو والعـافيـة في الـدنيـا والآخـرة ، في ديني ودنياي ، والستر والنجاة في الدنيا والآخرة .

اللهم تقبّل منا عملنا غنيّاً بـرحمتك وفضلك ، ندّياً بعونك ومددك . اللهم اجعله عملاً خالصاً لوجهك الكريم ، طاهراً ، نقيّاً من شوائب الدنيا .

والحمد الله رب العالمين

عدنان علي رضا النحوي

الرياض
الأول من محرّم ١٤١٩هـ
٢٧/ ٤/ ١٩٩٨م



الباب الأول

المسؤولية الفردية جوهرها والأسس التي تقوم عليها

الفصل الأول
واقع المسلمين
بين العلاج والتخدير

ليست النظرية «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » التي ندعو إليها توجَز بمقالة في صحيفة أو مجلة ، أو محاضرة في ندوة أو مؤتمر ، ثم يُكتفى بذلك الموجز . ولاهي ثمرة لحظات آنية خاطفة أو فكرة عابرة طرأت على البال ثمّ مرّت .

كلاّ !« **إن النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » دراسات متصلة متتالية استغرقت أكثر من ثلاثين عاماً ظهرت تفصيلاتها وتفصيلات أجزائها في أكثر من أربعة وخمسين كتاباً .

إنها خلاصة الجهد كله ، وخلاصة التجربة في الحياة ، في ميدان الدعوة وخارجها . لا أُنكر أن كثيراً من التجارب كان قاسياً مؤلماً في كثير من الميادين ، ولكنَّ كلَّ تجربة كانت زاداً يُضاف إلى زاد . ويبارك الله في زاد كل إنسان يجنيه من تجاربه ، إذا كانت التجارب مصاحبة للإيمان والتوحيد ، مصاحبة لمنهاج الله ، تُردَّ إليه حتى يتبيّن الخطأ من الصواب والحق من

الباطل ، وإذا كانت التجارب تصاحبها النصيحة الأمينة ، حين يُنصَح المسلم وحين يتقبَّل النصيحة ولايَسْتكبِر عليها ، وحين تخضع النصيحة لقواعدها الربانية وآدابها الإيمانية ، وحين تكون الأمانة نور الفكرة والكلمة ، والرأي والموقف ، والخطوة والسعي .

لقد مرَّ العمل الإسلامي بظروف متبدلة لسنوات طويلة جداً لم تُسجَّل فيها تجارب العمل الإسلامي تسجيلاً منهجيّاً ، ولاهي تواصلت ليستفيد كل جيل من تجارب الجيل السابق . لقد كان العمل الإسلاميّ «**مُتَقَطّعاً**» ، لاترتبط حلقاته ولا مسيرته إلا من خلال مذكرات شخصية تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى ، حتى أصبحت كلُّ حركة إسلامية ، حين تستأنف المسيرة ، تكاد تبدأ من نقطة الصفر . فتباعدت الأفكار وتنافرت ، وأخذ التباعد والتنافر يزداد مع الزمن . ورافق ذلك كله «**تقطُّع**» الأُمة المسلمة نفسها إلى قطع متناثرة اختلطت فيها الشعارات والرايات ، وهبّت العصبيات الجاهلية يغذّيها الكافرون والمنافقون ، أعداء الله الطامعون في أرض الإسلام وثرواته .

لقد أدّت هـذه الظروف كلها ، وظـروف أخرى كثيرة ، إلى انتشـار أمـراض واسعة في واقـع المسلمين اليوم ، أخـذت تمتـدّ وتنتشر ، وأخـذ أعـداء الله يغـذونها ، حتـى أصبح لهم منـابـر يطلقـون منها كلمـة الكفر صريحة عـالية مـدوّية ، أو مُـزَخْرَفَـة بشتى ألوان الـزينة ، أو مخَدِّرة تحمل كل أنواع التخديـر ، تنفثه بالدم والعروق والأحناء والقلوب .

ولقـد كـان من شـدة أثـر هؤلاء أن استطـاعـوا أن يخترقـوا صف المسلمين بأفرادهم وبأفكارهم ، حتى ظهر الانحراف في فكر بعض المسلمين ، وحتى أخـذ هذا الانحراف ينمـو ويزداد ويتسع تحت شعـارات الإسلام . وأصبحت « العـائلية » تأخـذ روابط غير روابط الإيمان ، وأصبحت «الـوطنيـة » تحتل منـزلـة معـزولـة عن الإيمان والتـوحيـد ومنهـاج الله لـدى بعضهم ، وأصبحت الإقليمية والقـومية تأخذ الـولاء الأعلى والولاء الأول ، وقـامت نماذج شتى من الأوثـان ، وأخذت الشعـارات تـدوّي دون أن تجد لها رصيداً من الصدق والأمانة في الواقع .

ولقـد آذى جهود الإصـلاح ومعـالجة الأَمراض أو عطَّلها

ماكان يطلقه بعض الدعاة من شعارات «**التخدير**» ، يطلقونها بحجّة التثبيت أو التشجيع ، ولكنها بدلاً من ذلك قتلت الحافز للنهوض ، ودفعت الكثيرين للتخاذل والاستسلام ، وجعلت الأَفكار تتصادم والصراع يتوالى والمذاهب تتوالد .

« **الصحوة الإسلامية** » كلمة محبَّبة إلى النفوس . كان من المفروض أن تستفيد «الصحوة» من جهود العاملين ليرشدوها ويوجهوها لتخدم الأمة المسلمة ، ولتجمع الكلمة وتوحِّد الجهود ، وتنقذ الأرض والعرض والدم ، ولتنقذ الإنسان المسلم ودينه وشرفه . لقد خدَّرت «شعارات الصحوة» كثيراً من الناس ، حين فُقِدت الدراسات المنهجيّة الفعّالة الواعية ، وحين غابت في بعض الأحيان في صراع التنافس على الدنيا وزهرتها وزهوتها ، وحين أصبح كلٌّ يريد أن يثبت نفسه في الساحة ليُعترف به أنه «**البطل**» .

ودفعت روح التنافس هذه إلى أن «**ينهش**» المسلم عمل أخيه المسلم ، أو ينهش كلمته وفكرته ، ليُنسَب ذلك إلى نفسه ، ولينال ، حسب مايُزيّن له الشيطان ، قصب السبق على غيره ،

في ميدان ليس التنافس الذي يجري فيه هو التنافس الذي يدعو إليه الإيمان وصفاؤه ، والإسلام وصدقه ، ففسدت النية وبطل العمل، وخسر الكثيرون الأجر والثواب في كثير من ميادين البذل والعطاء .

إن التنافس على الدنيا يفسد النية ويبطل العمل ويذهب بالأجر ، دون أن يدخل في ذلك حق المسلم في حماية كلمته وفكرته ، وعرضه وماله ، ووطنه وداره ، شريطة أن يكون ذلك كله على طريق ممتد في سبيل الله ، ليكون رضوان الله والجنة والدار الآخرة هي الهدف الأكبر والأسمى ، وهي الحافز والمحرك والموجه ، لا هدف أعلى من ذلك مهما كان عظيماً ، ولا هدف يطغى على الهدف الأكبر والأسمى - الجنة - أبداً . فتذوب من خلال ذلك كل تطلعات الدنيا من افتراء وكذب ، وظلم وعدوان ، وثأر يمتلك على الإنسان حسه وعاطفته ، حتى يصبح هو هدفه الأعلى المعلن .

لقد آذى جهود الإصلاح ومعالجة الأمراض والعلل غلبةُ الهوى وحب الدنيا ، وكثرة المجاملات على حساب الحق البيّن ،

وامتداد الجهل بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ واللغة العربية . لقد عجمت ألسنة العرب ، وغلبت عليها اللهجات العامية واللحن واللغات الأجنبية .

لقد أَصبح من أثر ذلك أن اتخذ بعض الناس أولياء لهم من دون الله ، يحبونهم كحب الله أو أكثر ، فامتد الشركُ الخفيّ والعلنيُّ ، وساعد ذلك كله على نفاذ الأفكار المريضة والمنحرفة إلى قلوب كثير من المسلمين وعقولهم :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبَعوا لو أن لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تَبَرَّؤوا منا كذلك يريهم الله أَعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٥-١٦٧]

فتكوّن في واقع المسلمين تابع ومتبوع . تكوّنت قطعان

سائمـة تساق إلى هـلاكها في كثير من الأحيـان ، حيث طُوِيت «**مسؤولية الفرد**» ، وكأنّ المسلم شُلَّت قواه ، فما عاد يستطيع أن يقـرأ ويدرس ويتَـدبَّر ، ولا أن يعيَ ويَتفكَّـر ، ولا أن ينهج ويعـزم ويعمل . لقـد تعطلت قـوى الملايين من المسلمين حين تحوّلت إلى قطعان تساق . لقد امتـد «الشلَلُ» حتى لم يَعدْ يقوى الفرد أحياناً على النطق ، على إعطاء الرأي ، على إبداء كلمة أو جملة ، كيف يقـوى على البذل والعطاء ، ونصرة الحق ، والجلاد والجهاد .

لقد رأينا نماذج شتى من « المشلـولين » في الواقع الإسلامي الممتد : منهم من يقـول لاتجوز دراسة القرآن وتلاوتـه وتدبره إلا للعلماء وحدهم فقط ، وأمـا العامـة فلتبق عامـة . ونشط دعاة هذه الفتنة التي تدعو إلى «**الشلل**» والجمود .

ورأينا نموذجا آخر يقول لاتقرأ القرآن ولا تتدبره إلا على يد شيخ ، فإذا قيل لـه انهض واذهب إلى الشيخ ليعلّمك ، قـال : وأين هم الشيـوخ ، إنهم مشغـولـون عنـا ! أو يُخرِج لك من الأعذار مايسوّغ بها الكسل لنفسه .

ونماذج أُخرى تقول لاتقرب السُنَّة فحسبنا القرآن ، ثم يفُسدون على الناس تدبّر القرآن . ونماذج تقول لك اتل كتاب الله ولا بأس عليك أن لاتفهمه فلست مكلَّفاً بفهمه . وربما رأيت من يحفظ القرآن غيباً وهو لايعي كلمة منه ولايعرف اللغة العربية . وربما ينهض أناس ليتلوا القرآن أو يحفظوه دون أن يربطوا دراسته بدراسة السنة ودراسة اللغة العربية ، أو بالممارسة والتطبيق .

ويظل منهاج الله من خلال هذه النماذج لايؤدي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوة الخاتمة . وبذلك يتخذ الناس «مرجعاً» غير منهاج الله ، مرجعاً من البشر وحدهم ، أو مرجعاً من صناعة البشر ، ولايعود منهاج الله هو مرجع الأمة كلها وفتياتها ، وشيوخها وعلمائها وقادتها .

إن غياب هذا «**المرجع**» الذي أمر الله سبحانه وتعالى أن يكون هو «**المرجع**» للأمة كلها ، إن غياب هذا المرجع عطَّل كثيراً من وسائل العلاج والإصلاح ، وجعل العلل والأمراض تمتد في واقع المسلمين ، وتمتد معها الفواجع والهزائم ، وسقوط الديار بعد الديار ، في بحار من الدم أو في بحار من الاستسلام .

ولقد برز بشكل جليّ أن الأمراض كلها نابعة من مرض أساسي واحد ، هو الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد ، الخلل في فهمها والعمل لها .

من هذا الخلل الخطير والمرض الكبير انبثقت سائر العلل والأمراض في واقع المسلمين على مدى عصور طويلة ، حتى طُرِحتْ بسبب ذلك أشكالٌ شتَّى من الانحراف في التصور والفكر والعاطفة والشعور ، والكلمة والموقف .

من هنا إذن يبتدىء الإصلاح والعلاج كما بدأ محمد ﷺ ، وكما بدأ جميع الأنبياء والمرسلين من قبله ، وكما أمر الله سبحانه وتعالى أن يبدأ الإصلاح ! من هناك تبدأ الدعوة الإسلامية في الأرض في جميع العصور ، حيث ترتبط هذه المرحلة بكل مرحلة تالية ، تصاحبها ولا تفارقها . إنها القضية الكبرى في الكون والحياة ، تمضي مع التربية والبناء ومع الجهاد في سبيل الله ، ومع مسيرة الأمة المسلمة الواحدة ، ومع عمارة الأرض بحضارة الإيمان .

من هنا تبتدىء الدعوة الإسلامية ، ومن هنا يبدأ النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية ، ومن هنا تبدأ «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» .

ربما يقول قائل هل في كتاب الله وسنة رسول ﷺ هذا المصطلح «**النظرية العامة في الدعوة الإسلامية**»؟! فنجيب : كلا ! لايوجد هذا المصطلح ، كما أن كثيراً من المصطلحات الفقهية التي ظهرت في تاريخ الفقه الإسلامي لاتجدها في الكتاب والسنة . ولكن المسلمين مطالبون بأن يستحدثوا من المصطلحات مايلائم كل واقع وكل مسألة ، وأن يضعوا من النظريات والمناهج التطبيقية ونماذجها مايحتاجه كل واقع ، على أن يكون ذلك كله نابعاً من قواعد الإيمان والتوحيد ، ومن قواعد منهاج الله ، مرتبطا به خاضعاً له .

يضاف إلى ذلك أن المسلمين مكلَّفون بأن يضعوا من الدراسات التفصيلية مايُقدّم صوراً تطبيقية لمنهاج الله في الواقع أو لبعض قواعده مما يناسب كل واقع ، نظريات ومناهج عملية ونماذج تطبيقية .

إن منهاج الله هو الحق المطلق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب

عزيز * لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصّلت : ٤١ ، ٤٢]

والمسلمون مكلفون بتطبيق منهاج الله في جميع شؤون حياتهم ، أفراداً وجماعات وشعوباً . ومن خلال هذه الممارسة الإيمانية في ميادين الدعوة والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد وغير ذلك ، يمكن أن يضعوا «**نظريات**» تمثل الصورة النظرية للتطبيق أو الممارسة في أي ميدان .

إن هذه «**النظريات** » وما يتبعها من **مناهج ونماذج** هي جزء من **النهج والتخطيط** الذي يحتاجه المسلمون في كل شؤون حياتهم ، والذي هو قاعدة من قواعد العمل بالإسلام في جميع الميادين .

إن **النهج والتخطيط** ضرورة أساسية للمسلمين ، غابت عن واقعهم وحل محلها الارتجال وردود الفعل ، فكانت الهزائم والفواجع . وكان غياب النهج والتخطيط يضاف إلى ماسبق أن ذكرناه من نواحي الخلل ، فأُضيف ضعف إلى ضعف وخلل إلى خلل .

« **فالنظرية العامة للدعوة الإسلامية** » تجمع القواعد العامة الرئيسة من منهاج الله ، لتُذَكِّر بها من ناحية ، ولتعالج بها أمراض الواقع وعلله .

ولاتقتصر «**النظرية العامة** » في حقيقتها على مانعرضه هنا . إننا نعرض هنا بناء النظرية العامة وخطوطها العريضة وأجزاءها وبنودها . إننا نعرض قاعدتها الصلبة وركنيها ومشكلات الواقع الرئيسة التي تتحول إلى أسس أربعة في حياة الدعاة ، ثم نعرض عناصر التنفيذ .

وكما ذكرنا فلكل جزء أو بند أو عنصر للنظرية العامة دراسات مفصلة في «**كتب الدعوة**» ، حيث يأخذ كل كتاب مكانه الأمين في نهج محدد ونظرية محددة .

هذه الكتب تمثل جهداً بشرياً . والكتب التي يُقدّمها الجهد البشريّ المؤمن لها دور خاص في الدعوة الإسلامية . ولكنها لايمكن أن تحل بأي حال من الأحوال محل منهاج الله . فلمنهاج الله دور متميّز في الدعوة ، وفي حياة المسلمين ، وفي حياة البشرية كلها ، لايمكن لأي كتاب أو كتب أن تقوم أو

تـؤدي دوره . إن جميع كتب المسلمين في تـاريخهم الطـويل لانستيطيع أن تـؤدي دور منهـاج الله . هـذه حقيقـة يجب أن تكون بارزة قوية في واقع الـدعوة الإسلامية وفي واقع المسلمين .
وكـذلك لاتستطيع كتب البشرية كلهـا ، ماسبق منهـا وماهـو قـائم وما سيأتي مستقبـلاً ، أن تـؤدي دور منهاج الله أبـداً ، في الدعوة أو التربيـة والبناء ، أو الجهاد والجلاد ، أو غير ذلك من الأهداف أو الميادين .

ولذلك تجيء «**النظـريـة العـامـة للدعـوة الإسـلاميـة**» لتبرز هـذا الـدور العظيم لمنهـاج الله ، ولتبيِّن الـدور المحـدَّد للكتاب البشري الـذي يقدمه جهـد المؤمن . فللكتاب البشري الذي يقدّمه جهد المؤمن خصائص أساسية يجب أن تتوافر فيه ، ويجب على الـدعـاة المسلمين والكتـاب المسلمين أن يعـوا هـذه الخصـائص من ناحيـة ، وأن يعوا دور الكتـاب البشري ، حتى يؤدي الكتاب دوره بأمانة ودقة .

إن أهم الخصائص التي يجب أن تتوافر في الكتاب البشري الذي يقدمه المؤمن يمكن إيجازه بما يلي :

أولاً : أن يكون نابعاً من منهاج الله مرتبطاً به خاضعاً له ، حجته وبيِّنته من منهاج الله ، لايستبدل بها حجة أُخرى مهما كان مصدرها ، مادامت الحجة متوافرة في منهاج الله .

ثانياً : أن يكون الكتاب منهجيّاً ، يعرض منهجاً محدداً ، أو يأخذ مكانه في منهج محدد ، يرتبط بما قبله من الكتب ويرتبط بما بعده .

ثالثاً : أن يدرس الواقع في مختلف الميادين دراسة نابعة من منهاج الله ، واضحة الحجة والنظرة والتحليل ، ولا يُستثنَى ميدان من ميادين التاريخ والواقع والحياة مع هذه الخصائص العامة الثلاث ، ومن خلالها يكون للكتاب البشريّ الذي يقدّمه الجهد المؤمن دور واضح ومهمة جلية ، يمكن إيجازه بما يلي :

أولاً : أن يذكّر الناس بما أمر الله به ، أو ببعض ماأمر الله به تذكيراً يحمل الخصائص السابقة ، تذكيراً منهجياً يحمل الحجة والبينة من منهاج الله .

ثانياً : أن يدفع الناس دفعاً إلى دراسة منهاج الله ليأخذوا

منه التصور والفكر ومعالم النهج وقواعده لجميع ميادين الحياة ونشاطها .

ثالثاً : أن يلحَّ إلحاحاً شديداً ويؤكد القاعدتين السابقتين ، ليربط الناس بربهم وخالقهم الله الذي لا إله إلا هو أولاً ، وبمنهاج الله ثانياً ، لا أن يربطهم بنفسه أولاً ، ولا بأولياء من دون الله ، ولا بأهواء ومصالح مادّية .

رابعاً : أن يدرس الواقع دراسة منهجيّة من خلال منهاج الله ، وأن يدرس أمراض الواقع على ضوء ذلك ، ويقدّم العلاج النابع من منهاج الله .

خامساً : أن يربط ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها من خلال دراسات منهجيّة ومن خلال منهاج الله . فإذا درس التاريخ درسه من خلال منهاج الله دون أن يخضع لأي عصبيات جاهلية برزت في التاريخ الإسلامي ، ودون أن يثبتها ودون أن يعيدها حيّة في حاضرنا . وكذلك يدرس الحاضر ويستشرف المستقبل ويخطط له ، وأن يردّ على أعداء الله في كل ميدان يخوضه .

سادساً : أن يقَدِّم المناهج التطبيقية المفصلة والنماذج التطبيقية التي تعين على تحقيق كل هدف من أهداف الدعوة الإسلامية .

سابعاً : أن يُقَدِّم الدراسات التفصيلية للوسائل والأساليب والمراحل والأهداف التي تلّبي حاجة الواقع ، وترسم الدرب مشرقاً بالإيمان والتوحيد ، مشرقاً بمنهاج الله .

ثامناً : أن يقدّم « **النماذج العمليّة** » بالإضافة إلى **المناهج التطبيقية** .

إن النهج العام للدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية تمثلان محور الكتب التي نقدمها في الدعوة الإسلامية ، وحول هذا المحور تدور التفصيلات .

إننا نؤمن بأن مثل هذه الدراسات المنهجية حين تتكامل بين جهود الدعاة ، تنفي كثيراً من التنافس المريض الذي يشهده واقعنا . وكذلك فإنه يرسي القواعد المتينة للقاء المؤمنين من ناحية ، ولاتصال تجارب العمل الإسلامي وتواصله على مدار التاريخ ، حتى تجد الأجيالُ المؤمنةُ بين يديها زاداً نامياً متواصلاً متناسقاً ، لا زاداً مقطعاً متصارعاً .

ومهما تكن أَهداف الدعوة الإسلامية التي قدمنا لها دراسة خاصة مفصلة في كتاب لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف ، فهناك هدفان عامان رئيسان نلح عليهما ونريد أن تتعاون الجهود على تحقيقهما في واقع المؤمن والجماعة والأمة :

أولاً : النجاة من فتنة الدنيا بكل ألوانها وزخارفها وأهوائها وشهواتها ، حتى لاتدفعنا هذه كلها إلى الانحراف والضلال . نريد الثبات على الحق ووضع النهج والتخطيط الذي يساعد على ذلك في واقع الحياة .

ثانياً : النجاة من عذاب الآخرة وأوله عذاب القبر . النجاة من ذلك كله برحمة الله وعفوه وغفرانه . نريد ذلك ونريد وضع النهج والتخطيط الذي يعين على تحقيق ذلك في واقع الحياة .

ومن أجل ذلك ، ومن أجل تحقيق سائر الأهداف : الهدف الأكبر والأسمى والأهداف الثابتة ، والأهداف المرحلية ، من أجل تحقيق ذلك وتحقيق الهدفين العامين السابقين ، هنالك هدف عام ضروري هو «**لقاء المؤمنين** » !

إن «**لقاء المؤمنين**» هدف مرحلي ضروري ، تعتمد سائر الأهداف على تحقيقه وقيامه . إن الصراع الدائر معصية وإثم لاتجلب رضاء الله سبحانه وتعالى . وإن إيذاء المسلمين بعضهم بعضا باب واسع لدخول أعداء الله إلى قلب الصف المؤمن ليمزّقوه ، وإن الالتقاء على عواطف وشعارات فحسب لقاء سرعان مايتمزّق ، وإن الالتقاء على أخطاء وأمراض هو زيادة للبلاء والنكبات والفواجع .

إن «**لقاء المؤمنين** » هو لقاء المؤمنين الصادقين الذين يريدون الدار الآخرة لا الدنيا . فالدار الآخرة لها درب ونهج ، والدنيا لها درب ونهج ، وهذان نهجان لايلتقيان .

فلقاء المؤمنين لايمكن أن يتمّ في واقع الحياة إلا على أسس ربانية جلية ثابتة لامراء ولا جدال فيها ولا حولها . من أجل ذلك يجب إلغاء القاعدة السابقة التي انتشرت كثيراً بين المسلمين فما زادتهم الا فرقة وخلافاً وصراعا :

« نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه »

إنها قـاعـدة مبهمة ينكشـف اضطرابها في ميـدان التنفيـذ والـواقع . وإن أخطر مـافي هذه القـاعدة أنها جعلت التعـاون والاتفاق ، والاختلاف والتسامح فيه ، مـرهوناً بالبشر ورغباتهم ومـا يَتَّفِقون عليـه وما يختلفـون . إن الله سبحـانه وتعـالى جعل للتعـاون والاتفـاق قواعـد ربـانيـة على المؤمنين أن يلتزمـوهـا ، وجعل للخـلاف ميدانـا مباحاً وميـداناً حـراما . ولـذلك نضع قاعدة أخـرى لتكون أساس التصور للتعـاون أو الخلاف ، بدلاً من القاعدة السابقة :

«**يجب أن نتعـاون فيما أمـرنـا الله أن نتعـاون فيـه ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا بالاختلاف فيه** » .

ففي هذه القاعدة ارتبط أمر الاختلاف والاتفاق بما أمر الله به ، لا بـرغبات بشرية وروابط غير إيمانيـة ومصالح دنيـوية تُغطَّى كلهـا بشعارات إسـلامية ، تخدِّر دون أن نجـد لها رصيداً حقيقياً في الواقع .

من أجل هذا كله كان «**النهج العام للدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية** » . فالنظرية العـامة جزء من النهج والتخطيـط ، والنهج والتخطيط جـزء كـــذلك من

النظرية العامة التي تدعو إليه وتلح به .

ويجب أن لاتكتفي **النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام والتخطيط** بطرح النظرية وعرضها في مقالة أو محاضرة . يجب أن يُرَافِق النظرية العامة وموجزَها دراسات تفصيلية لكل جزء منها ، دراسات تقدم المناهج والأساليب والوسائل لتيسير عملية الممارسة والتطبيق على المسلم ، ودراسات تقدّم مع المناهج نماذج تطبيقية توضح المناهج وتوضح النظرية ، حتى ينجلي صدق النظرية أو خطؤها ، وحتى تتوافر عناصر النموّ الحقيقي للجهد البشري في ميدان العمل الاسلامي ، إذا رافق ذلك كله صدق النيّة وإخلاص التوجّه إلى الله ، حتى يكون العمل كله جزءاً من النيّة وتصورها ، فتمضي النيّة الصادقة مصاحبة لكل خطوة ، نقيّة من الهوى ، نقيّة من الغفلة ، قوية بالإيمان والعلم والوعي ، ماضية على صراط مستقيم حدَّده الله لعباده رحمة منه ، وبيَّنَه لهم ، وكلفهم بالانطلاق عليه في كل واقع جديد يتلمسون معالمه بنور الإيمان والحق .

لذلك فإننا نقدّم في سلسلة «**كتب الدعوة الإسلامية**» «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» **والنهج العام** لها ، **والمناهج التطبيقية والنماذج التطبيقية** في ميادين العمل الإسلامي : ميدان الدعوة والبلاغ ، ميدان التربية والبناء ، ميدان التدريب ، ميدان الأدب ، ميادين دراسة الواقع ، وغير ذلك . وتظل الميادين تتفتَّح أمام الدعوة الإسلامية ، وتظل النظرية العامة تنمو بنمو الميادين وتفتحها .

وحين نقدّم هذه النظرية العامة والنهج العام والمناهج والنماذج ، فإننا نقدمها بدراسات مفصّلة لتكون بين أيدي جميع المسلمين فتيانهم وشبابهم ودعاتهم وعلمائهم ، وبين أيدي الحركات الإسلامية ، ليُدرَس هذا كله ، وليكون أساسا للقاء المؤمنين ، ولقاء القلوب الصادقة مع ربها ، والجهود الخالصة لله ، والعزائم المشدودة بالتقوى وحب الآخرة .

ولابد أن نؤكد أن كتاباً واحداً أو كتابين أو أكثر لايكفي لبيان حقيقة النظرية العامة للدعوة الإسلامية ونهجها العام ، ولبيان تكاملها وتناسُقها . إن هذا يبدو ويتضح بترابط الكتب والدراسات التي نقدّمها ، وبتكاملها .

* * *

لابد أن نؤكد نقاطاً نراها هامة تحتاج إلى إعادة وتكرار ، ونصح وتذكير ، ننصح بها أنفسنا أولاً لنجاهد في أنفسنا ، ثم ننصح الآخرين :

١ - إن مايصيبنا من فواجع ومجازر هو بقضاء الله وقدره ، وقضاء الله حق . والله لايظلم أبداً . فما يصيبنا إذن هو بما كسبت أيدينا .

٢ - لذلك علينا جميعا ، على كل مسلم يريد النجاة ، وعلى كل حركة إسلامية تريد النصر ، علينا جميعاً أن نقف مع أنفسنا ومناهجنا ونظرياتنا وأعمالنا وقفة إيمان ومراجعة وحساب ، وقفة دراسة وتقويم ، لنحدِّد أخطاءنا بوضوح وجلاء ، دون كبر واستعلاء ، ولنضع وسائل العلاج . إن الخطر أصبح زاحفاً كالإعصار المدمر ، ولكنّ النجاة والنصر قريبان بإذن الله ، إذا صدقت وقفة الإيمان والعلاج والتوبة إلى الله ، فالنصر وعد الله لعباده المؤمنين إذا صدقوا وأوفوا بعهدهم مع الله .

٣ - إن أهم شرط للـوفـاء بعهـد الله هـو لقـاء المؤمنين الصادقين ، وإزالـة الفرقـة التي مزّقتنا . لقـد كانت كل حـركة تـرى أنها وحدهـا ستقـود الأُمـة للنصر والنجاة ، وأخـذت كل حركة فـرصتها ومدتها ، ووصلنا بعـد الجهود الطويلة إلى مـانراه من شتات وذلـة وهوان . واليوم لاتستطيع أي جبهـة أن تدّعي ماكـانت تدعيه سابقـا من أنها قادرة وحدهـا على أن تقف أمام جبهـة أعداء الله الـذين التقوا صفّـاً واحداً في كيـدهم للإسـلام والمسلمين . فـلا بد اليـوم ، من أجل الـوفـاء بالعهـد مع الله ، ومن أجل الاقتراب مـن النصر والنجـاة ، أن تلتقي القلـوب والعزائم في أمّة مسلمة واحدة كالبنيان المرصوص كما أمر الله .

٤ - ولايفيد اللقاء إذا كان لقـاء إداريا شكليا يجمع ممثلين على غرار المنطق الـديمقراطي . إن الذي نحتـاجه اليوم هـو لقاء نهج محدد يطرح قـواعد ربـانيّة ليس لأحد أن يخرج عنهـا ، لقاء إيمان ويقين ، وعقيـدة وعهـد . وبعد ذلك تبرز وسـائل اللقـاء وأشكـالـه . لانـريـد من اللقـاء أن نجمع مـرضـاً إلى مـرض ، وخلافـات إلى خلافات . إننـا نريد أن نخضع لما يأمـر به الله من لقاء على سبيل واحـدة وأهداف واحدة ووسـائل واحدة على درب ممتد إلى الجنـة : **﴿قل هذه سبيلي أدعـو إلى الله على بصيرة أنا ومن**

اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

٥ - وحين نقدّم «النهج المحدَّد بكل تفصيلاته ، ونقدم «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» ، فذلك من أجل أن يكون هذا النهج قاعدة لقاء المؤمنين وأساسه . فإما أن يكون النهج حقّاً فليتبعه الجميع ، وإما أن يثبت بطلانه بالحجة والبيّنة من منهاج الله فلنتركه كلنا ، وإما أن يكون فيه باطل وفيه حق ، ويِثبُت هذا أو ذاك بالحجة من منهاج الله ، فلنترك الباطل ولنأخذ الحق ، وإما أن يكون هنالك نهج أصح وأكثر خيراً فقدموه كما نقدم هذا النهج . إننا نبحث عن الحق ونسعى إليه وندعو إليه . والحق في منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية . وعلى أساس من منهاج الله والواقع يقوم النهج والتخطيط ، والنظرية والمناهج والنماذج .

فعلى ضوء ماعرضناه في الصفحات السابقة ، فمن أهمّ القضايا التي يجب أن نثيرها بالنسبة لواقع المسلمين اليوم ، وبالنسبة للنهج والتخطيط وبالنسبة للمعالجة والإصلاح ، ورفع الخدر والغفوة : «**المسؤولية الفردية**» : ماهي أسسها ، وما هي تكاليفها ، وما هو تميّزها ؟!

الفصل الثانـي
جوهر المسؤولية الفردية ومَحورها والأُسس التي تقوم عليها

١ - «الأمـانـة» التي حملها الإنسان هي محور المسؤولية والحقوق والواجبات :

لماذا نطرح قضية المسؤولية الفردية اليوم ؟! نطرحها لأن صورتها اضطربت في أذهان الكثيرين تحت ضغط الأفكار المتناقضة الوافدة ، ولأن الملايين من المسلمين تخلّوا عن مسؤولياتهم الفردية وأصبحوا مرتعاً خصباً لأعداء الله . ولأن حقوق الإنسان التي تطالب بها هيئات كثيرة عزلت هذه الحقوق عن المسؤوليات . **والحقوق والمسئوليات مترابطة** لايمكن فصل بعضها عن بعض إذا أردنا حياة متوازنة سليمة للإنسان فلا يستطيع الإنسان أن يوفي بمسؤولياته إذا جُرِّد من حقوقه ، ولايستطيع أن يستوفي حقوقه إذا أضاع مسؤولياته .

إن جميع حقوق الإنسان ومسؤولياته تنطلق من قاعدة

رئيسة يقررها الإسلام ، ليميز بها الإنسان عن سائر مخلوقات الله .

تلك القاعدة هي أن الإنسان يحمل أمانة في هذه الحياة الدنيا لايحملها غيره من المخلوقات :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ✱ ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ونعتقد أن هذه «**الأمانة**» هي ممارسة منهاج الله في واقع حياة الإنسان على الأرض . وحين يحمل الإنسان هذه «الأمانة» ويمضي بها في الحياة الدنيا يتوب الله عليه ويغفر له ، فهو من المؤمنين والمؤمنات . أما إذا ترك هذه «الأمانة» وتخلّى عنها فيكون ظلوماً جهولاً . إنه جاهل بعظمة هذه الأَمانة ، ظالم لنفسه بتركها وظالم لغيره .

لذلك وهب الله الإنسان كل مايلزمه لحمل هذه الأمانة ،

فَتَميَّزَ ببعض ذلك عن سائر المخلوقات ، كما تميّز منها «**بالأمانة** » التي يحملها . ومن أهم ذلك السمع والبصر والفؤاد ، لتكون المنافذ التي يستقبل بها آيات الله المبثوثة في الكون ، ويستقبل بلاغ الأنبياء والرسل ، ولتظلّ فطرته تتلّقى النّور الفيّاض الذي يغسلها ، ويحافظ على توازنها ، فيعي الإنسان حقيقة الأمانة التي يحملها ، فيؤمن بها ويمضي للوفاء بها :

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون ﴾ [الملك : ٢٣]

وحين تتعطل هذه القوى عن أداء مهمتها ، وتنغلق هذه المنافذ ويتوقف استقبالها للنور من آيات الله ومن بلاغ الأنبياء ، يهبط الإنسان إلى درك الأنعام بل إلى أضلّ من ذلك ، في غفلة وضياع وظلام :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعينٌ لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة توضح قضية الإنسان ومهمته في الحياة الدنيا ومسؤولياته فيها . وإذا تدبّرنا منهاج الله فإننا نجد أن منهاج الله عبَّر عن مهمّة الإنسان ودوره في هذه الحياة الدنيا بأربعة ألفاظ ، كلٌّ منها يدلّ على نفس المهمة والدور والمسؤولية ، ولكن بظلال مختلفة . وهذه الألفاظ أو الكلمات هي : **العبادة ، الأمانة ، الخلافة ، العمارة .** ويُفصِّل منهاج الله المهمة كلها وظلالها .

ثم يؤكد منهاج الله أن هذه المهمة والمسؤولية وظلالها المختلفة التي تمدّها الكلمات الأربع ، يمضي بها الإنسان من خلال سنّة الابتلاء التي كتبها الله على الإنسان ، ليمحّصه وهو أعلم به ، ولتقوم عليه الحجة يوم القيامة أو تقوم له .

ويؤكد منهاج الله أن هذه الأمانة والعبادة والخلافة والعمارة تتمثّل بتكاليف ربّانيّة مفصّلة بيَّنها منهاج الله ، وبيّن أن هذه التكاليف تُمثِّل الصراطَ المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ، وأن هذا الصراط المستقيم هو سبيل الله ولا سبيل للمؤمنين سواه .

٢ - حقوق الإنسان منحة من الله ونعمة منه وليست منّة من البشر : [١]

فالإسلام ، وهو دين الله ورسالته إلى خلقه وعباده ، حمله الأنبياء والمرسلون الذين خُتموا بمحمد ﷺ وبلّغوه وبيّنوه ليعالجوا به مشكلات الإنسان على الأرض ، وليدعوا الناس إلى الحق من عند الله لينجوا من عذاب الله في الآخرة ، وليستقيموا على أمر الله فيسعدوا في الدنيا ويأمنوا ، ويقوم بينهم ميزان العدل والأمن والحرية ، ميزاناً أميناً لايقف عند الشعارات ، وليعيدوا إلى الإنسان حقوقه التي سلبها المجرمون في الأرض ، والتي شرعها الله رب العالمين .

يارسول الهدى حملت إلى النا س سلاماً يرعاه دينٌ وصيد
أنت أرجعت لابن آدم حقّاً كم أضاعته فتنة وجحودُ
وعتاة بغوا على الناس حتى تاه في الدرب جائع وطريدُ

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعيّة » للمؤلف : الباب الخامس : (من : ٢٤١-٢٩٦) . وكتاب : «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الإنتماء الصادق إلى الإسلام » للمؤلف : الباب الثالث .

يـاحقـوق الإنســان ! هـذا هـو الحقُّ ! سـواه فبـاطل مـردود
إنها مِنحـــــةٌ من الله حـقٌّ لم تُشرِّعــه عصبـة وعبيــدُ [1]

* * *

وحملت الأُمة المسلمة بعد النبوّة الخاتمة رسالة الله إلى عباده ، لتمضي بها في الأرض ممتدّة مـع الزمن جهـاداً ووفاءً بهذه الأمـانة العظيمة .

وكان الإنسان وصـلاحه ، حقوقه ومسؤولياتـه وواجباته ، لقاؤه وفـراقه ، تعاونـه وخصامه ، محور هـذه الرسـالة الربّـانية العظيمة ، ليكون الإنسان عبداً صالحاً لله رب العالمين .

لايُعقل أن تكـون حقـوق الإنسـان في الأرض ، في الحيـاة الدنيـا ، منحة من إنســان أو هيئة أو سلطان ، أو ثمـرة فلسفة بشرية يصوغها الإنسان من خلال ضعفه وجهله وكبره وغروره .

إن حقوق الإنسـان نعمة من الله عليـه ، ومنحة منـه له ، ورحمة من رب العـالمين ، من الله الـذي لاإله إلا هـو لـه الأسماء

(١) من ملحمة الأقصى للمؤلف - (ط : ٢) .

الحسنى كلهـــا ، شرعهـــا الله للنـــاس جميعـــاً ، على مختلف المستويـات والقدرات والمواهب ، حتى لايتمايز النـاس في ميزان الله بـالأنسـاب والـدم وأشبـاه ذلك ، ولكن يتمايـزون بـالـوسع والموهبة والقـدرات ، بالكفـاءة والبذل والعطـاء ، والتنافس في ميــدان الحق والصــلاح في سبيل الله ، حين يضمّ ذلك كلــه التقوى الجامعة في ميـادين الحياة كلها ﴿ **.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات : ١٣]

٣ - الحق الأول للإنسان : حماية فطرته ، وهو الحق الذي أهملته النظم البشرية : [١]

لقد كان من أهم ماعالجتـه رسالة الإسلام أخطر قضية في حقوق الإنســان ، وأول حق من حقـوقه . إنه ذلـك الحق الذي أهملته شرائع النـاس ، وأهملته لجان حقـوق الإنسان وجمعيـاتها وهيئـاتها ، وقتلتـه وأخفتـه في طيات الشعـارات والـزخـارف ، ودويّ الفتنة والفساد .

(١) يـراجع كتاب : «المسلمـون بين العَلمانيَّة وحقـوق الإنسان الـوضعيّة ، البـاب الخامس - الفصل الخامس - من أجل تفصيلات موسّعة عن هذا الحق الأكبر لـلإنسان . وكـذلك كتاب «التعـامل مع مجتمع غير مسلم من خـلال الانتماء الصادق إلى الإسلام » للمؤلف : الباب الثالث - الفصل الرابع .

إن هذا الحق الأول للإنسـان هو حماية فطرتـه التي فطره الله عليها ، والتي أودعها برحمته الإيمان والتـوحيد ، وسائر الطاقات والميول ، لتعمل هذه الطـاقات متصلة بالإيمان والتوحيـد مرويّة من نبعه الغنيّ ، وليكون عمل الإنسان بعد ذلك عملاً صالحاً . أما إذا انعزل العمل عن هذا النبع أو جفّ النبع فلم يروه فيكون العمل فتنة وفساداً .

لـذلك نـرى أن الفلسفات التي أقـامت نظمهـا في مختلف أنحاء الأرض ، لم تـولِ قضية حماية فطرة الإنسـان التي فطره الله عليهـا عنايـة ، ولم تحرص على تـوفير الجو الذي يحتضنهـا . بل على العكس من ذلك شـوّهت الفطـرة وآذتها وأفسـدتها حين قطعت عنها ريَّ الإيمان والتوحيد ، وأحـاطتها بالفتنة والفجور ، وألهبتها بـالشهوات والأهـواء ، وخدرتها بـالسكر والخمـور ، أو أفسـدتها بالـرعب والإذلال ، والخنق والأغلال ، حتى انحـرف السلوك ، وتاهت الكلمة أو اختفت .

إن هذا الحق الأول لـلإنسان هـام وضروريّ . فمن خـلاله يستطيع الإنسان أن يجابه الخطر لينجيه الله بفضله ورحمته وعونه ،

فأمام الإنسان خطران حقيقيان لا وهم فيهما ولايملك أن يتجاهلهما إلا غاف أو تائه . هذا الخطران هما :

الأول : فتنة الدنيا بزينتها وزخرفها ، ومصائبها وما كتبه الله فيها من ابتلاء حقٍّ على الإنسان .

الثاني : بعد النزول إلى القبر والدخول في عالم الغيب وحيداً منفرداً ، ليلقى حالاً جديداً ، وليلقى بعد ذلك البعث والحساب ، فإما إلى جنة و إما إلى نار .

سلامة الفطرة وحمايتها هي الباب الأول للنجاة في الدنيا والآخرة . فهي السلاح الأول في الحياة الدنيا أمام الفتننة ، وهي المنفذ والدرب إلى الخير والصلاح ، والنور واليقين . وبذلك تصبح هي الحق الأول للإنسان ، وواجب القوى كلها أن توفّر هذه الحماية لها : إنها واجب الوالدين أولاً والأسرة وأجواء البيت ، وواجب المعاهد والمؤسسات ، وواجب الإعلام ، وواجب العلماء والدعاة وأولي الأمر ، وواجب اللجان والهيئات القومية والدولية ، وواجب القوى كلها أن توفّر «الحضانة» الطاهرة الأمينة للفطرة .

إن حمايـة الفطرة ورعـايتهـا لتوفير سـلامتهـا تمثل القاعـدة الأولى التي تقوم عليها نظرية التربيـة الإيمانية ، في تربية الأطفال ورعـايتهـم وحمايتهم ، وتـربيـة الفتيـان والفتيـات والشبـاب والشابـات ، وبناء الأجيال المؤمنـة الصالحة الظـاهرة في الأرض رجالاً ونساء .

إنها محور التربيـة الإيمانية الإسـلامية ومـدارها : ولا بـد أن تثبت هذه الحقيقـة الهامة في قلـوب الدعـاة والعلماء والحركات ، وفي المعاهـد وكل من يلي أمـراً من أمور التربيـة والبناء لـلأطفال خاصـة وللأجيـال كلها عـامة في السـاحة الإسـلامية ، فكلهم محاسَبون يوم القيامة عن ذلك بين يدي العزيز الجبّار .

هـذه هي القضيـة الأولى التي تقـوم عليهـا سـائر حقـوق الإنسـان ، وتنطلق منهـا ، وتُبنى عليهـا المسؤوليـات كلهـا من حقوق وواجبـات . فإذا سلمت الفطرة واستقـامت على أمر الله نجا الإنسـان والمجتمع والأمة ، وتوازنت الحقوق والـواجبات ، وأصبح الإنسـان قـادراً على استقبـال رسـالـة الله ، ووعي مسؤولياته وتكاليفه وحقوقه كما شرعها الله لعباده في أمرهم كله .

٤ - الأسس التي تحدّد بها مسؤوليات المسلم : واجباته وحقوقه :

تتحدَّد مسؤولية المسلم في واقع الحياة الدنيا على أسس أربعة ، تتوازن من خلالها الحقوق والواجبات :

أ - **المنهاج الربّاني** : فالمنهاج الرباني يحدّد التكاليف الربانيّة من تفكير وتدبر ، واتخاذ قرار ، وإيمان وتوحيد ، والشهادتين ، والشعائر ، وتدبُّر لمنهاج الله ، والدعوة إلى الله ورسوله ، وغير ذلك من تكاليف مفصّلة يحاسَب عليها المسلم يوم القيامة ، مما لايمكن تفصيله وعرضه هنا . وهذه التكاليف منها فرائض ، على كل مسلم أن يقوم بها إلا من كان له عذر شرعيّ ، كالمرض الذي يمنع عن الجهاد في سبيل الله ، ومنها مايتحدّد على ضوء الأساس الثاني والثالث لتحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات . والمنهاج الربانيّ هو الركن الأول في النظرية العامة .

ب - **الوسع** : إن التكاليف الربانية هي في حدود وسع الإنسان عامة . ولكن يضيق الوسع أحياناً في بعض الناس ، فيترك بعض الفرائض ، ويأخذ ببعض السنن والنوافل مما هو أقرب لهواه .

وتتوالى الآيات والأحاديث في المنهاج الرباني لتبيّن هذه القاعدة الهامة وهي الوسع الصادق للإنسان ، الوسع الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسبه عليه يوم القيامة . ونكتفي هنا بذكر آية وحديث ، ليعود المسلم إلى منهاج الله فيأخذ الصورة بتكاملها :

﴿ ولانكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾ [المؤمنون : ٦٢]

نعم ! لايُظلَم أحد أبداً . فالله أعلم بوسع كل إنسان ، وأعلم بما وضع عليه من تكاليف يحاسَب عليها ، وأعلم بما عمل وبذل ، وبأي نيّة بذل وعمل ، وعلى أي نهج سار .

وعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم وإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه**» [رواه الشيخان] (١)

والذي نودّ أن نؤكده هنا ماسبق شرحه حول قضية الوسع

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر ، حيث جاء قوله : وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الحديث أعلاه» مجلد (٤) - طبعة دار المعرفة بيروت - [ص : ٣٣٦]

في كتب أُخرى من كتب الدعوة ، ألا وهي قضية الوسع الصادق والوسع الكاذب . فالوسع الصادق هو الوسع الذي وهبه الله للإنسان والذي سيحاسبه عليه . وأما الوسع الكاذب فهو الذي يدّعيه الإنسان لنفسه ليسوّغ تقصيره وعدم قيامه ببعض التكاليف الربانية دون عذر شرعي مقبول . ولقد فصلنا في هذا الموضوع في كتاب : «النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء » .

ج - **النظام الإداري والخطة والنهج** الذي تضعه الطاقة البشرية المؤمنة على أساس من المنهاج الربّاني والواقع ، والذي يبين تحديد الصلاحيات والمسؤوليات في كل مستوى إداريّ في الأمة . ويستمد هذا الأساس شرعيته من أنه قائم فعلاً على منهاج الله ، نابع منه ، مرتبط به ، خاضع له ، ومن أنه مع هذه الخصائص يلبي حاجة الواقع للمؤمنين . ففي هذا النظام الإداري ، أو الخطة والنهج ، يجب أن تُحدَّد بشكل واضح صلاحيات كل مستوى ومسؤولياته ، وأن تتحدَّد أشكال المراقبة والإشراف والتوجيه والمتابعة . ويدخل في ذلك

التكاليف أو التعليمات الصادرة في أي مستوى من مستويات النظام الإداري ، التي تكون نابعة من الأسس الثلاثة السابقة ، مرتبطة بها خاضعة لها بصورة جلية .

د - **الواقع** : الواقع هو الركن الثاني في «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » . وهو يؤثر كثيراً في مفهوم الوسع ، وفي النظام الإداري والخطة والنهج ، والتعليمات والتكاليف الصادرة عن ذلك ، ويكون هذا الدور للواقع في تحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات بصورة متوازنة عندما يُدرَس الواقع ويُفهمَ من خلال المنهاج الرباني .

إنَّ الأُسس الثلاثة الأخيرة يجب أن تكون مرتبطة بالمنهاج الرباني نابعة منه خاضعة له ، حتى تتوافر الموازنة الأمينة بين الحقوق والواجبات . وبمقدار ماتصدق الطاقة البشرية في إيمانها وعلمها وخبرتها يصدق النظام الإداري والنهج والخطة والتعليمات ، ويصدق النمو والتطور في الجهد البشري في ساحة الإيمان والتوحيد .



الباب الثاني

المسؤوليات والتكاليف الرّبانية على الإنسان



الباب الثاني
المسؤوليات والتكاليف الربّانية
على الإنسان

١ - المسؤولية الأولى والتكليف الأوّل على الإنسان التفكير المنهجي الذي يقود إلى الإيمان :

إن أول المسؤوليات والتكاليف التي عليه من الله هي التفكير والتأمُّل والتدبُّر حتى يؤمن . فإذا كانت «**حماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها**» هي الحق الأول والأخطر للإنسان ، فإن أول واجب عليه وأول تكليف ربّاني أن **يفكر ويتأمل ويتدبّر** ، وأن ينظر في نفسه وفي السموات والأرض وفي مسيرة التاريخ ، استجابة للفطرة التي فطره الله عليها . وقد وفَّر الله سبحانه وتعالى للإنسان جميع وسائل التفكير الإيماني المنهجي . وفّر له السمع والبصر والفؤاد ، ووهب له الفطرة السوية السليمة ، وبثَّ آياته في الكون كله ، وبعث الأنبياء والرسل حتى لايكون للناس على الله حجّة بعد الرسل .

إن هذا التكليف الأَول للإنسان بـالتفكير والتأمل والتدبر تفكيراً يؤدِّي بصاحبه إلى الإيمان والتوحيد :

﴿ قل إنما أعظكم بـــواحـــدة أن تقــومــوا لله مثنى وفرادي ثمَّ تتفكّـروا مابصاحبكم من جنّة إن هــو إلانذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : ٤٦]

وكذلك :

﴿ إن في خلق السمــوات والأرض واختـــلاف الليل والنهار لآيــات لأولي الألباب ﴿ الــذين يــذكرون الله قيــاماً وقعـــوداً وعلى جنـــوبهم ويتفكّـــرون في خلق السماوات والأرض ربنـــــا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النـار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]

هذه هي المسؤولية الأولى : « أن تقوموا لله . . » استجابة للفطـرة ، ثم تتفكـروا وتنظروا ، ثـم تستمعوا إلى دعـوة الـرسل الذين ختموا بمحمد ﷺ .

وكذلك :

﴿وفي الأرض آيــاتٌ للمـــوقنين . وفي أنفسكم أفـــلا تبصرون * وفي السماء رزقكم ومـا تـــوعـدون * فـورب السماء والأرض إنـــه لحق مثل مـــاأنكم تنطقـــون ﴾ [الذاريات : ٢٠-٢٣]

وكذلك :

﴿ قل انظـروا مـاذا في السمـوات والأرض ومـا تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾ [يونس : ١٠١]

وكذلك :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلـون بها أو آذان يسمعـون بها فإنها لاتعمـى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦]

وضرب الله لنـــا أمثلـــة كثيرة ونماذج مـن منهج التفكير الإيماني . فهذا إبـراهيم عليه السلام ينظر في ملكـوت السموات والأرض يتأمل ويتفكر استجابة للفطرة السليمة :

﴿ وكـذلك نـري إبراهيم ملكـوت السمـوات والأرض

وليكون من الموقنين . فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحبُّ الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : ٧٥-٧٩]

هكذا نظر إبراهيم عليه السلام في ملكوت السموات والأرض ، يتأمل ويتفكر في صفاء وصدق . ويضرب لنا القرآن الكريم نماذج من وقفات إبراهيم عليه السلام ، ومن نظره وتأمّله وتدبّره في ملكوت السموات والأرض ، وكيف كان نهج تفكيره نهجاً إيمانياً انتهى به إلى القرار ، إلى إعلان إيمانه .

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلاً آخر بمؤمن آل فرعون في سورة غافر ، وهو يواجه موقفاً خطيراً حين دعا فرعون إلى قتل موسى عليه السلام . فتصدى رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسى عليه السلام ويدعو قومه إلى الإيمان :

﴿ وقـال رجل مـؤمن مـن آل فـرعـون يكتم إيمانـه أتقتلون رجـلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بـالبيّنات من ربكم و إن يك كاذبـاً فعليه كـذبه وان يك صـادقاً يصبكم بعض الـذي يعدكم إن الله لايهدي من هـو مسرف كذاب* ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فممن ينصرنا من بأس الله إن جـاءنا قـال فرعـون مـاأريكم إلا ماأرى ومـا أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر : ٢٨، ٢٩]

ثم يعـرض هـذا الـرجل المؤمن نهج تفكيره والأسس التي يقوم عليها نابعة من الفطرة السليمة :

﴿ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * ياقـوم إنما هذه الحيـاة الدنيـا متاع و إن الآخـرة هي دار القـرار * من عمل سيئـة فـلا يُجزى إلا مثلهـا ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة يـرزقون فيهـا بغير حساب * ويـاقـوم مالي أدعـوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تـدعونني لأكفر بالله وأشرك بـه ماليس لي بـه علم وأنـا أدعوكم إلى العـزيز الغفـار *

لاجرَم أنّما تـدعونني إليه ليـس له دعوة في الـدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنـا إلى الله وأن المسرفين هم أصحـاب النار * فستذكرون ماأقـول لكم وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ [غافر : ٣٨-٤٤]

وفي الحوار بين الـرسل وأقـوامهم نماذج من التفكير الإيمانيّ لـدى الرسل ومن تبعهـم ، ونماذج من التفكير المضطرب لـدى الكافـرين . وفي حياة الصحابـة رضي الله عنهم نماذج أخرى . فسلمان الفارسي رضي الله عنـه طوّف في الأرض يبحث عن الحق . يستمع إلى هـذا وذاك ، ويفكر ويتأمل ويتـدبّر ، حتى جـاء المدينة ورأى الرسول ﷺ فهداه الله .

ونجـد في الكتـاب والسنة الإلحاح على الإنسـان بـالتفكير وبالتأمل والتدبّر .

وهذه المسؤولية ممتـدّة مع الإنسان لاتتوقف حتى يوارى في قبره . ويظل الإنسـان يتحمل مســؤوليّة تفكيره ، ومسـؤوليـة مايصاحب التفكير من نيّة وعزيمة .

إن منهج التفكير الإيماني يتميّز أولاً بالنيّة الصادقة عند الإنسان والعزيمة الأكيدة للبحث عن الحق . لايعصف به الهوى ولاتجرفه المصالح فتحرفه عن النهج السليم .

ويتميّز كذلك بأنه نابع من الفطرة السليمة قبل أن تتشوّه ، مرتبط بها وبالقوى العاملة فيها ارتباط توزان وعدالة .

٢ - المسؤوليّة الثانية أن يتخذ قراراً ويتحمّل مسؤولية قراره :

هذه هي المسئوليّة الثانية على الإنسان ، وهي مرتبطة بالمسؤولية الأولى : مسؤوليّة التفكير والتأمّل والتدبر . فعلى الإنسان أن يتخذ قراراً نتيجة لتفكيره وتأمله : هل يؤمن أم يكفر ؟ فإن اتخذ قراراً بالإيمان والتوحيد ، فذلك استجابة لفطرته السليمة التي فطره الله عليها وغرس فيها الإيمان والتوحيد ، وذلك بهداية الله له . وإن كان غير ذلك فهو استجابة لفطرة غير سليمة ولا سويّة ، واستجابة لهوى ضالٍّ سيطر على فكره وقلبه ، فأضلّه الله بما كسبت يداه . والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء على حكمة بالغة وقضاء نافذ وقدر

غـالب . والله يقضي بالحق فـلايظلم أبداً ، فقضـاؤه حقٌّ فيمن فكر واهتدى ، وقضاؤه حقٌّ فيمن ضل وكفر . وكان من قضاء الله وقدره أن يتحمّل الإنسان نتيجة قراره :

﴿ وقل الحقُّ من ربكم فمن شـاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفر إنـا أعتدنا للظـالمين ناراً أحـاط بهم سرادقها و إن يستغيثـوا يغـاثـوا بماء كـالمهل يشـوي الـوجـوه بئس الشراب وسـاءت مـرتفقـا * إن الـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات إنا لا نضيع أجـر من أحسن عملاً * أولئك لهم جنـاتٌ تجري من تحتها الأنهار يحلّـون فيها من أسـاور من ذهب ويلبسـون ثيـابـاً خضراً من سنـدس وإستبرق متكئين فيهـا على الأرائك نعم الثواب وحسنـت مرتفقـاً ﴾

[الكهف : ٢٩-٣١]

نعم ! هـذه هي سنّة الله التـي سنّها لعبـاده ، والتكليف الـذي قضى بـه . إنـه : **﴿وقل الحق من ربكم فمن شـاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...﴾** !

إنها مسؤولية اتخاذ القرار بعد التفكّر والتدبر . ثم تأتي بعد

ذلك مسؤولية تحمّل نتيجة القرار الذي يتخذه . فالمؤمن نتيجة قراره الجنّة في الآخرة وعون الله في الدنيا . والكافر نتيجته جهنم ، نارٌ يحيط بهم سرادقها في عذاب دائم .

المؤمنون من مسؤولياتهم ، كما سنذكر بعد قليل ، أن يبلّغوا الناس رسالة الله كما بلغها محمد ﷺ : ﴿**وقل الحقُّ من ربكم ...**﴾ . والناس يستمعون إلى هذه الدعوة ويُفكِّرون ، ويتخذ كل إنسان قراره ويتحمل مسؤولية قراره . فلا إكراه في الدين . يجب أن يكون الإيمان ذاتياً ، نابعاً من فطرة الإنسان وقناعته ، متحملاً مسؤولية ذلك :

﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : ٢٥٦، ٢٥٧]

يجب أن يكون الإيمان نابعاً من أعماق الإنسان ، فلا يفيد

المكر والخداع والنفاق ، فإن الله مطّلع على مافي القلوب وما ضمته الصدور :

﴿ لله مافي السموات ومافي الأرض وإن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يُحاسبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٨٤]

﴿ قل إن تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه يعلمْه الله ويعلم مافي السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران : ٢٩]

لكل قرار يتخذه الإنسان نتيجة ومصير ، ونهاية ومآل ، لاحجة للإنسان بعد ذلك أبداً ، حين يأتيه الموت ، وينكشف الغطاء ، ويرى الحق الذي دعي إليه فأنكره وكفر به :

﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠]

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا

نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ [الأنعام : ٢٧]

هنا تطوى الفلسفات التي اغترَّ بها هؤلاء فأهلكتهم . فرحوا بها في الحياة الدنيا حتى انكشف أمرهم وقامت عليهم الحجة ، وَحقَّتْ عليهم كلمة ربّك أنهم أصبحوا بفسقهم أصحاب النار .

٣ - المسؤوليّة الثالثة للإنسان المؤمن : الشهادتان :

إن فكَّر الإنسان وتأمل وتدبّر ، فاهتدى وآمن واتخذ قراره بذلك ، فتصبح مسؤوليّته بعد ذلك أن يعلن إيمانه وذلك بالشهادتين يعلنهما واضحتين صريحتين :

« أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله »

يعلنهما المؤمن مدوّيتين في أعماق الزمان وفي أعماق الإنسان وفي آفاق الكون ، ليكون الإيمان عملاً جليّاً مشرقاً لايعتوره لبس ولا غموض . ويستثنى من ذلك طبعاً الحالات الخاصة التي قد يأذن فيها الإسلام بكتمان الإيمان فترة لاتدوم .

يجب أن يعلن المؤمن هاتين الشهادتين لتكونا العلامة التي

يعرفه الناس بها ، والسمة البارزة فيه ، وليشهدوا عليه بها في الدنيا والآخرة .

إن اللحظة التي يعلن فيها المؤمن إيمانه لحظة فريدة في مسيرة الإنسان . إنها تمثل النُّقلة الواسعة الهائلة في حياته ، حين ينتقل بها من الجاهلية إلى الإيمان ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد والأوثان والشهوات إلى عبادة الله الذي لاإله إلا هو .

هذه اللحظة الفاصلة في حياة المؤمن الصادق ، لاتكون فاصلة في حياة المنافق الذي نطق لسانه وما آمن قلبه . إن المنافق يحسب أنه قادر على أن يخدع الله وأنّى له ذلك . إنها لحظة آنيّة ولنسُمِّ الإسلام حينئذ إسلاماً آنياً ، لانملك نحن المسلمين المؤمنين إلا أن نقبل هذا الإعلان وهذا الإسلام «**الآنيّ**» . ولانملك نحن البشر أن نتَّهم من نطق بالشهادتين أنه كاذبٌ لحظة نطقه بهما . فالله وحده يعلم مافي نفسه وصدره . ولكننا في الوقت نفسه نملك أن نطالبه بالوفاء بحقوق الشهادتين وشروط الإيمان نطالبه بالوفاء بذلك في الدنيا . فإن قام بذلك كان أمره إلى الله وحسابه عند الله ، ويظلّ المؤمن مع المؤمن

يُـذكِّـر ويعين وينصح ، ويمضي المؤمنـون على الــوفـاء بحق الشهادتين .

أما إذا نطق بالشهادتين واكتفى بهما وأبى أن يؤدي الشعائر وأن ينهض إلى التكاليف الربانية ، فلا نملك أن نُقرَّه على ذلك ، فنـذكِّـره وننصحـه ، فإن أبـى وأصرّ على عـدم الـوفـاء بحق الشهـادتين ، فلا نملك أن نحكم لـه بـالإسلام ولا بـالإيمان ، وتطبّقُ عليه أَحكام الإسلام وشريعته وحسابه عند الله .

إنَّ حُكْمَنا عليـه حكـم في الدنيا ، لأننـا مكلفون أن نطبّق شرع الله على ظاهـر مانـرى والله أعلم بالسرائر . والله يحكم بين عبـاده يوم القيـامة ويفصل بينهم فيغفـر لمن يشاء ويعـذّب من يشاء .

إن إعلان الشهـادتين إعلانـاً جليّاً أمـر في غايـة الأهمية في حياة المؤمنين ، فعلى أسـاس هذا الإعـلان نستطيع أن نحاسب المسلم ونطبق عليه أحكـام الإسلام وشرع الله ، ونطالبه بـالوفاء بما نطق وأعلن .

إن بعض الناس يَتوهَّمون أَنهم تكفيهم الشهادتان ليصبحوا مسلمين ، دون أن يُطالَبوا بالوفاء بحقوق الشهادتين والتزام قواعد الإيمان والتوحيد . إن هذا وهمٌ قاتل . فالإسلام لا يأذن للمسلمين أن يُقِرُّوا أحداً على ترك الشعائر والتخلّف عن سائر التكاليف الرّبانيّة التي تؤلّف كلها درباً ممتدّاً إلى الجنّة فمن توقَّف عند الشهادتين ولم يمض على الدرب فأنَّى له أن يبلغ الجنّة . ولكننا نظل نقول إننا نطبّق عليه شرع الله وحكمه في تخلفه وعدم وفائه في الدنيا ، وحسابه يوم القيامة عند الله .

إن من أهم أسباب هذا الوهم لدى بعض الناس أنهم يأخذون جزءاً من الإسلام ، آية أو حديثاً ، يعزلونه عن سائر الآيات والأحاديث ، ثمّ يبنون عليه - فقهاً مريضاً . ومن الأسباب لهذا الوهم ابتعاد الناس عن الكتاب والسنة ، وأخذ الإسلام كلمة من هنا وكلمة من هناك ، دون أن تكوّن هذه الكلمات علماً حقّاً . ثمّ إنها وسوسة شياطين الجنّ والإنس ، وتسلل أفكار المنافقين والمشركين والكافرين إلى قلب المجتمعات الإسلاميّة ، ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى ليمّحص عباده

ولتقوم لهم الحجّة أو عليهم ، وليُفتَن المنافق وينجو المؤمن الصادق .

إن المؤمن ، حين يعلن الشهادتين بصدق وإخلاص ، فإنه يعلن للدنيا كلها أن ولاءه الأول لله ، وأن عهده الأول مع الله ، وأن حبّه الأكبر هو لله ولرسوله ، وأنه من هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينشأ كل ولاء وعهد وحب في الدنيا . إنه يعلن بهاتين الشهادتين أن روابطه وعلاقاته مع الناس جميعاً روابط إيمانيّة يصوغها الإيمان والتوحيد ، وأنّه يحبُّ في الله ويبغض في الله .

وبهاتين الشهادتين يعلم المؤمن أن الإيمان والتوحيد مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب ، وأن ذلك كلّه مفصل في منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربيّة .

وبهاتين الشهادتين تنعقد في قلبه النيّة الخالصة لله ، النيّة التي تظل مصاحبة له في مسيرته كلها ، النيّة التي تعني أولا الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وثانياً أنها عزيمة على المضيّ على صراط مستقيم .

وبهاتين الشهادتين ، وبهذه النيّة ، وبهذا التصوّر لقضيّة الإيمان والتوحيد ، يبدأ الجهاد في سبيل الله ، جهاداً في نفسه حتى تستقيم على أمر الله ، جهاداً يظل ممتداً حتى يلقى الله سبحانه وتعالى :

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين ﴾ [العنكبوت : ٦]

﴿ وجاهدوا في الله حقَّ جهاده .... ﴾ [الحج : ٧٨]

عن فضالة بن عبيد عن الرسول ﷺ : «المجاهد من جاهد نفسه في الله » [رواه الترمذي وابن حبان] [(١)]

وبهاتين الشهادتين ، وبالنيّة الصادقة ، وبمجاهدة النفس ، وبذكر الله الممتد ، ينهض المؤمن ليوفي بالأمانة ، والعهد ، وحق الخلافة في الأرض ، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان . إنه ينهض من أجل ذلك إلى سائر التكاليف الربانيّة ، لتكون حياته كلها عبادة لله ، كما أمر الله . ينهض المؤمن ليمارس

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (رقم : ٦٦٧٩) .

منهاج الله في الواقع البشريّ ممارسة إيمانية تدفع إلى العمل الصالح .

٤ - المسؤولية الرابعة : أداء الشعائر كلها والوفاء بها :

أن أول الممارسة الإيمانيّة بعد الشهادتين هي القيام بالشعائر كلها : الصيام والصلاة والزكاة والحج .

وهذه الشعائر مع الشهادتين جعلها الله أركاناً خمسة للإسلام ، وأسساً راسخة يقوم عليها بناء الإسلام بالتكاليف الربانيّة . إن جميع التكاليف الربّانية الأُخرى لاتصح ولاتقبل إلا إذا أوفى المسلم بالأركان الخمسة ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ :

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال : **«بُنيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»** [رواه الخمسة][1]

(١) أحمد : ١/ ٧٩ ، البخاري : ٢/ ١/ ١ ، مسلم : ١/ ٥/ ٢٠ ، الترمذي : ٤١/ ٣/ ٢٦١٢ النسائي : ٤٧/ ٣/ ٥٠٠١ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته (دط : ٣) رقم : ٢٨٤٠ .

إن الله سبحانه وتعالى غنيّ عن العالمين . فهذه الأركان الخمسة : الشهادتان والشعائر التي فرضها الله ، هي حاجة الإنسان نفسه ، هي غذاؤه الذي يمده بالقوة والعزيمة ، والحماية والقدرة على المضيّ على صراط مستقيم . هي التي تدفعه لينهض إلى سائر التكاليف الربانيّة ، ليوفي بحق الأمانة التي حملها والعبادة التي خُلق من أجلها ، والخلافة التي جُعلت له ، والعمارة التي أمر بها .

إن الوفاء بجميع التكاليف الربانيّة عبادة لله . وإنها تمضي كلها متماسكة مترابطة لتمثل الصراط المستقيم بتماسكها واستقامتها على نهج ربّاني متكامل .

إن أداء الشعائر بحقّها هو جزء من العبادة لله سبحانه وتعالى ، والوفاء بالتكاليف الأخرى عبادة أيضاً ، وعمل المؤمن كله إذا صدقت النيّة على صراط مستقيم عبادة خالصة لله . والله الذي فرض الشعائر هو الذي فرض سائر التكاليف .

إن الشهادتين وأداء الشعائر تصل المسؤوليات والتكاليف بعضها ببعض ، وتدفع المؤمن للمضيّ ، وتربط العمل كله بالدار الآخرة .

إن كثيراً من المسلمين اليوم يؤدون الشعائر وينطقون بالشهادتين ، ولكنهم يفصلون بين هذه الأركان الخمسة وبين سائر ممارستهم في واقع الحياة . فقد تجد الرجل المنتسب إلى الإسلام ، بالرغم من صلاته وصيامه ، فإنه يفكر بمنهج عَلماني يفصل الدنيا عن الآخرة ، ويفصل بين التكاليف الربانيّة ، فيؤدّي مايشاء ويعطّل مايشاء . وقد تجد مثل هذا الرجل يقف في صفٍّ من يحارب الله ورسوله ، ويدعو بدعوة غير دعوة الإسلام .

فلا بد أن نعيد ونؤكد أن الأركان الخمسة فرض فرضه الله ، وأن هنالك فرائض أخرى فرضها الله سبحانه وتعالى ، لايجوز تعطيلها ولا فصلها بعضها عن بعض . وأن الأركان الخمسة ، إذا أُدِّيت بحقّها ، فإنها تدفع المؤمن إلى سائر التكاليف وتحميه من أن يتوقف في الطريق أو يتراجع أو ينحرف ، لأنها هي الأساس الذي تقوم عليه سائر التكاليف .

٥ - المسؤولية الخامسة : طلب العلم ودراسة منهاج الله وتدبّره [١]:

وكما ذكرنا قبل قليل ، فإن الوفاء بالأركان الخمسة يدفع المؤمن دفعاً إلى أن يُقبل على منهاج الله دراسة وتدبّراً وحفظاً على قدر وسعه الصادق الذي سيحاسِبه الله عليه ، لا على قدر وسعه الكاذب الذي يدّعيه تحت ستار من الأعذار .

إنه يُقبل إقبال شوق ويقين ، وتدبّر وفهم ، والتزام صادق وممارسة إيمانيّة ، صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجيّة ، لاتتوقّف أبداً .

إنه يستعين من أجل ذلك بإمكانات المجتمع التي تعينه ولا تفتنه ولا تحرفه ولا تثبّطه .

إن دراسة منهاج الله وتدبره طلباً للعلم الحق هو فرض فَرَضَه الله سبحانه وتعالى ، وبَلَّغَنا إياه رسوله محمد ﷺ :

فعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : «طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ، وإن طالب العلم يستغفر له كل

(١) يراجع كتاب «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» للمؤلف .

شيء حتى حيتان البحر » [رواه ابن عبدالبرّ وغيره] (١)

إنه تكليف من عند الله قائم على الأركان الخمسة مرتبط بها ، ممتدّ إلى ما يليها من التكاليف الربانيّة ، لتَتَّصِلَ التكاليف وتمتدّ على صراط مستقيم . وإن دراسة منهاج الله تغذّي عمل الأركان الخمسة وتشدُّ العزيمة للنهوض إلى سائر التكاليف الربانيّة . إنها تغذي إيمانه الذي انطلق منه وتغذي خشوعه في أداء الشعائر ، ويظل التأثير متبادلاً : الإيمان والشعائر تدفع إلى دراسة منهاج الله ، ودراسة منهاج الله تغذي الإيمان والتوحيد وصدق النيّة وإخلاصها لله ، حين يعرف المسلم من منهاج الله دربه كله ، والصراط المستقيم ، والأهداف الربانيّة الثابتة التي عليه أن يبلغها . إن النيّة وعي لما يقبل عليه المسلم وعزيمة على الوفاء به . ومنهاج الله يوفّر هذا ويغذّيه في قلب المؤمن الصادق . إن المسلم من منهاج الله يعرف التكاليف الربانيّة التي فرضها الله عليه ، والتي سيحاسَب عليها :

﴿ نحن أعلم بما يقولون ومآأنت عليهم بجبّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : ٤٥]

(١) الألباني : الأحاديث الصحيحة (١٧٦١) ، تخريج المشكاة (١٨٦) ، صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٤) .

نعم ! هذا هو أمر الله : ﴿ ... **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ..** ﴾ . ففي القرآن الكريم يجد المسلم التكاليف التي يحاسَب عليها يوم القيامة ، يوم الوعيد . وكيف يُعقَل أن يجعل الله مصير الإنسان إلى جنة أو إلى نار ، ثم لايبيّن لعباده بجلاء سبيل كل منهما ؟! لايُعقل أبداً ، فقد بيّن الله ذلك بالتفصيل :

﴿ **كتاب فُصِّلتْ آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** ﴾ [فُصِّلت : ٣]

ويؤكد القرآن الكريم أَهميّة هذه العودة لمنهاج الله ويلحُّ عليها ويأمر بها ، حتى لايبقى حجة ولاعذر لمتهاون أبدا :

﴿ **المص * كتب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون** ﴾ [الأعراف : ١ - ٣]

وجاءت السنّة النبوية لتؤكد هذه الحقيقة الكبيرة والمسؤولية الخطيرة :

فعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض» [رواه الحاكم في مستدركه][1]

إن هـذه العـودة إلى منهـاج الله - قـرآنـاً وسنـة ولغـة عربية- يجب أن تكـون عودة منهجيّة يدفعهـا الإيمان والتوحيد ، يقبل عليهـا الإنسان المؤمـن بشوق وخشـوع . ويجب أن تخضع لشروط ونهج وخطة حتى تُحقّق هذه العودة الكريمة هدفها .

ويمكن أن نوجـز معالم النهج والخُطـة بنقاط سريعـة نجد تفصيلاتها في كتاب : «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» وكتـاب «**منهج المؤمن بين العلم والتطبيق**» . أهم هـذه النقاط مايلي :

أ - أن يصاحب المسلم منهـاج الله مصاحبة عمـر وحياة ، صحبة لاتتوقف ، صحبة منهجيّة .

ب - أن يأخـذ كل مسلم من هـذه الصحبـة قـدر وسعـه

(١) الألبـاني : الأحـاديث الصحيحـة (١٧٦١) ، تخريـج المشكـاة (١٨٦) ، صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٤) .

الـذي سيحاسبـه الله عليـه ، قدر وسعـه الـذي وهبه الله لـه ، دراسة وتدبُّراً وممارسة .

ج - أن يرافـق هذه الصحبـة دراسة اللغـة العربيّـة دراسة منهجيّة جادة .

د - أن يرافق هـذه الصحبة دراسة الـواقع ، لأن منهاج الله أُنزِل مـن عند الله ليُمارَس في واقع الحيـاة الدنيـا ، على أن تكون دراسة منهجيَّةً أيضاً .

هـ - على الـدعـوة الاسـلاميـة أن تضع تفصيـلات هـذه العودة إلى منهاج الله كما أشرنا أعلاه .

و - أن يكـون التدريب على ممـارسـة منهاج الله في الـواقع جـزءاً رئيساً من منهج الـدعوة وخطتهـا ، وأن يكون للتـدريب نظريتـه ونهجه وخطته . وتكـون الشهادتان والشعـائر وذكر الله أول الممارسـة الإيمانية والمسـؤوليـات عنـدئذٍ . ونجد تفصيـلات نظرية التـدريب ومناهجه ونماذجه ودراساتـه في كتب الدعوة . ولكن يقف أَمام العودة إلى منهاج الله عقبات كثيرة .

فهذه المسؤولية الخامسة التي يجب على المسلم أن ينهض إليها بعزيمة وقوة ، يقف أمامَ الوفاء بها عقبات كثيرة . إنها عقبات تراكمت مع التاريخ الطويل ، حتى هجر كثير من المسلمين منهاج الله وانقطعوا عنه :

﴿وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ [الفرقان : ٣٠]

ومن خلال نظرة عاجلة لواقع العالم الإسلامي ، وواقع من ينتسبون فيه إلى الإسلام ، نجد أن هناك خللين رئيسين بارزين تنطلق منهما سائر ألوان الضعف والخلل والتمزّق . هذان الخللان هما : الخلل في التصور الإيماني والتوحيد ، والهجر لمنهاج الله .

وإذا كانت الآيات والأحاديث تلح بالتزام المسلم لمنهاج الله وبتعهُّده ومصاحبته صحبة عمر وحياة ، فإن أئمة الإسلام على مدار التاريخ ذكَّروا الناس بأمر الله ورسوله في هذا الشأن ، وقالوا في جملة ماقالوا : **خذوا من حيث أخذنا .**

لكننا لاننكر أن قروناً طويلة من التاريخ الإسلامي وضعت عقبات كثيرة أمام عودة الناس إلى منهاج الله ومصاحبته والتزامه . . لقد أقام هذه العقبات هوان المسلمين أنفسهم ، ومكر أعداء الله الذين استغلوا هذا الهوان .

وكان من أهم هذه العوائق ضعف الإيمان أو الخلل فيه وفي تصور التوحيد ، حتى ضعف الحافز الإيماني في قلوب بعض الناس أو اختفى عند آخرين .

ومن أهم هذه العوائق ضعف اللغة العربية عند أبناء الإسلام عامة وعند العرب خاصة ، حتى غلبت العجمة على لسان الكثيرين ، فعمّ الجهل بين المسلمين بالقرآن والسنة ، وأصبح المسلم عالة على غيره ، عالة على العلماء والدعاة ، وادعى العلم كثيرون من غير أهل العلم ، وأصبح المسلم لايكاد يشعر بالتكاليف الرّبانية التي وضعها الله في عنقه ، وغابت عنه معاني العهد مع الله ، والولاء لله ، ومعاني الألوهية والربوية ، وعبودية الإنسان لربه وخالقه . وغابت عن كثير من المسلمين مسؤولية حمل الدعوة الإسلامية إلى الناس وبيانها لهم ، وغير ذلك من المسؤوليات والتكاليف .

لقد أصبح الكثيرون يدرسون أصعب علوم الدنيا ، ويبذلون الجهد العظيم لها ليلاً ونهاراً حتى ينالوا أعلى الشهادات بها ، ثم تراهم يُدبرون عن تدبّر منهاج الله .

إن منهاج الله علم حق . بل هو أساس كل علم . ولكن شاع بين الناس تعبير «**الثقافة الإسلامية**» ، حتى استقرّ في أذهان الكثيرين أَن الإسلام ليس **علماً** ، وأنه **ثقافة** ، وأنه حَسْب المسلم أن يأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك .

وتوالت العقبات أمام المسلم تصدّه عن تدبر منهاج الله ، فازداد ضعف إيمانه . وكلما ازداد ضعف إيمانه . ازداد إدباره عن تدبر منهاج الله . وأصبحت ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإعلامية والسياسية عوامل تساعد على صدّ المسلم عن منهاج الله وعن التصور الحق للإيمان والتوحيد ، وعن حقيقة التكاليف الربانية التي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة .

عقبات كثيرة لاننكر وجودها . ولكننا نعتبر الأُمة كلها بجميع مستوياتها مسؤولة عن ذلك وعن عدم النهوض لمعالجة هذه العقبات على أساس من نهج وخطة ، وتوفير السبل

والوسائل للعودة الواعية إلى منهاج الله ، ولتدبّره والتزامه ، وكذلك لممارسته في واقع الحياة ، والتدريب على ذلك .

ولكن أول المسؤولين المسلم نفسه الذي لايحلُّ له أن يجلس مسترخياً لاهياً عازفاً عن منهاج الله ، مدبراً عنه ، هاجراً له ، ثم يضع اللوم على الآخرين فحسب ، ناسيا مسؤوليته الأولى ، باحثاً عن المسوّغات والأعذار الباطلة لهجره منهاج الله .

على المسلم نفسه أن ينهض هو أولاً ليستفيد من إمكانات المجتمع وهي كثيرة : العلماء والدعاة ، الكتاب الذي يعين ، وسائر الوسائل الحديثة المتوافرة .

أيها المسلم ! أيها المسلمون ، أيها العلماء ! أيها الدعاة ! انهضوا جميعاً لنغيّر مابأنفسنا أولاً من عجز وتقصير وإقبال على الدنيا ، ولننهض إلى مسؤولياتنا كما أمر الله بها وفصّلها في منهاج الله .

لقد ظن بعض المسلمين أن أداء الشعائر هي أقصى مايطلب الإسلام منهم . وهذا وهم . فالشهادتان والشعائر هي الأساس الذي بُنِيَ عليه الإسلام ، وبُنِيتْ عليه التكاليف . وكل مسلم

مكلَّف قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له ليضعه في نصرة دين الله . أَوَ يُقبَل من مسلم أن يَدَّعي أن وسعه ضاق عن تدبّر منهاج الله واتسع لدراسة الطب والهندسة وغيرهما ؟!

من منهاج الله تُعرف التكاليف ، فإلى منهاج الله أيها المسلم قبل أن يأتي يوم لامردّ له من الله . وتكون الشهادتان والشعائر وذكر الله أول التكاليف والمسؤوليات عندئذ . إنها التكاليف التي تكوّن الأركان الخمسة التي تقوم عليها سائر التكاليف الربّانيّة .

أيها الدعاة والمسلمون ! لاتخافوا على الإسلام ، فالله ناصر دينه ، وهو غنيّ عن العالمين . ولكنه ابتلاء وتمحيص ، فخافوا على أنفسكم من فتنة الدنيا والنكوص عن التكاليف الربانية ، ومن عذاب الآخرة ، وتوبوا إلى الله جميعاً :

﴿ ... وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور : ٣١]

٦ - المسؤولية السادسة : دراسة الواقع ووعيه من خلال المنهاج الربّاني :

في هذه المرحلة التي يمرُّ بها المسلمون ، تجتاحهم الأَعاصير

والنكبات والفواجع ، والهزائم والمجازر ، وأعداء الله يثبون على المسلمين بالسلاح المدمِّر والفتنة والفجور ، والنساء والخمور .

- في هذا الأجواء من الظلام المتلاحق ، من كان يظنّ أننا نستطيع أن ننجو دون العودة الصادقة إلى الله ، ودون العودة الصادقة إلى منهاج الله ، فإنه واهم ! ومن كان يظنّ أننا نستطيع أن نجابه صفّ الأعداء المتراص بصفوف ممزّقة متنافرة ، وقلوب متنافرة ، وأهواء متصارعة ، فإنه غارق في الوهم والضلال ! ومن كان يظن أنه وحده قادر على مجابهة هذه الأخطار المحدقة ، فإنه غارق في سكر وخدرٍ ووهم وكبر !

ومن كان يظن أن هنالك شيئاً يجمع الأمة غير صفاء الإيمان والتوحيد ، وصفاء العودة إلى منهاج الله ، فإن وهمه أشد ، وضلاله أبعد .

ومن كان يظنُّ أن الله يُنزل نصره على الناس لأنهم ادّعوا الانتساب إلى الإسلام دون التزام صادق وممارسة أمينة ، فإنه كذلك ضارب في بحار الوهم والظن الباطل .

إن الله سبحانه وتعالى لا يُنزل نصره إلا على من أوفى بعهده مع الله ، وصدق الله بالوفاء :

﴿ ... وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾
[البقرة : ٤٠]

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [غافر : ٥١، ٥٢]

إن أمور الدين وقضايا الإيمان ليست أمانيَّ وأحلاماً ، ولا ظنوناً وأوهاماً . إنها جهاد حق ، وابتلاء ماضٍ ، وتمحيص أكيد ، وبذل ومعاناة ، والله مطلع ، يقضي بالحق والذين من دونه لايقضون بشيء . وهذا كله يجب أن يكون عملاً منهجيّاً لا ارتجال معه ، ولا ردود فعل آنيّة . ولكنه نهج ممتدٌّ وصراط مستقيم .

إذا نظرنا إلى واقعنا ومآسينا فلا نضع اللوم على أعداء الله وأعدائنا . بل نضع اللوم على أنفسنا . إنَّ الله حق ، يقضي بالحق ، ولايمضي أمر في الكون إلا بقضاء الله . فما أصابنا إذن هو بقضاء الله وقدره ، وقضاء الله وقدره حق لايظلم أبداً ،

فالعيب إذن فينا نحن المسلمين ، في أنفسنا . فإن أردنا النجاة صادقين فلننظر في أنفسنا ، ولنبحث عن عيوبنا ، لننهض ونعالجها ، ولنستقم على أمر الله ، قبل أن تتوالى الفواجع :

مالي ألوم عدوّي كلما نزلت بي الفواجع أو أرميه بالتّهم
وأدّعي أبداً أني البريء وما حملتُ في النفس إلا سقطة اللَّمم
أنا الملوم فعهد الله أحمله وليس يحمله غيرى من الأُمم

ماذا ينتظر المسلم من أعداء الله الذين يحاربون الله ورسوله ليل نهار ؟! أينتظر منهم أن يقدّموا له النصر على أطباق من الذهب ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لايرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾
[التوبة : ١٠]

إن الإيمان والتوحيد ، وهما يمثلان القضية الكبرى للإنسان ، انفتاح على واقع الحياة ، وتدبّر لسنن الله فيها ، ووعي واسع لأبعاد الواقع وآفاقه . إن الإيمان والتوحيد ليسا غياباً ولاغيبوبة ، ولكنهما حضور وإفاقه وقوة . إنه النّور الذي

يشقّ الظلمات ، ويجلو الحق أمام المؤمنين ، ويمدّ الدرب على صراط مستقيم ، وينفي ردود الفعل الآنية والارتجال ، ويرسى قواعد العمل المنهجي .

إلى هذه الحقائق يجب أن تتجه مدرسة الإسلام في واقعنا اليوم ، وإليها يجب أن يتجه الدعاة ، لتكون هذه القاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية ، وليكون هذان الركنان الأساسيان اللذان ينهضان عليها - المنهاج الرباني والواقع - لتكون هذه الثلاثة معاً لاينفصل بعضها عن بعض ، منطلقاً للعمل الصالح ، والممارسة الإيمانية الصادقة ، ومنطلقاً لنجاة الأمة ومعالجة الواقع .

إن كل واحدة من هذه القضايا الثلاث تحتاج إلى دراسات أمينة ، لتنزل إلى الواقع ممارسةً وتطبيقاً ، لا شعاراً يُطوى ، وصيحةً تغيب . يجب أن يرى العالم كله حقيقة الإيمان والتوحيد ، لامن خلال المؤتمرات والندوات والكتب ، ولكن من خلال الممارسة والصورة الحيّة النابضة .

٧ - المسؤولية السابعة : ممارسة منهاج الله في الواقع ، ومعرفة المسلم لحدوده ، ومبادرته الذاتية بحوافز إيمانيّة والاجتهاد ومجاهدة النفس في حدود مسؤولياته وأمانته وعلمه :

على ضوء ماسبق عرضه ، حين يوفي المسلم بمسؤولياته التي سبق عرضها : الإيمان والتوحيد ، تدبر منهاج الله ، وعي الواقع من خلال منهاج الله ، تتوالى أمامه الآيات والأحاديث التي تبيّن له تكاليفه ومسؤولياته وحقوقه . كيف لا ، وقد عرف أن الإيمان والتوحيد **مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب** ، وعرف أنَّ منهاج الله هو المصدر الأول الرئيس لهذا كله . سيعرف عندئذ أن على كل مسلم مسؤوليات في الحياة الدنيا تؤكدها الآيات والأحاديث ، وحسبنا هنا أن نذكر بحديث رسول الله ﷺ عن ابن عمر : «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبد**

راع على مال سيده وهو مسؤول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » [رواه الشيخان والترمذي][1]

وهكذا شمل الحديث الشريف جميع مستويات الأُمة ابتداءً من الأمير حتى العبد . ويدخل في هذا الشمول : التاجر والموظف والسياسي والاقتصادي والمدرس ، والرئيس والخادم . ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في كتب الجمعة والاستقراض والوصايا والعتق والنكاح والأحكام ، ومسلم في الإمارة والترمذي في الجهاد ، فشمل الحديث جميع المستويات والأفراد والميادين .

ومحور هذه المسؤولية التي يحملها كل مسلم هو ممارسة منهاج الله في واقعه وفي حدود مسؤولياته وأمانته واختصاصه . فيصبح في هذه الحالة من أهم مسؤولياته أن يعرف حدوده وأمانته واختصاصه على أساس مما سبق عرضه في تحديد المسؤوليات .

(١) البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ . الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥ .

فإذا عرف المسلم حدوده وأمانته وجب عليه التزامها والوفاء بها ، وعدم التعدّي على حقوق غيره ومسؤولياته ، ووجب معرفة حدود من يتعامل معهم لينزلهم منازِلَهم : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «**من حُسن إسلام المرء تركهُ مالايعنيه**» [رواه الترمذي ومالك][1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «**أمرنا رسول الله أن ننزل الناس الناس منازلهم**» [مسلم][2]

فلا بد للمسلم إذن أن يعرف مايعنيه ومالا يعنيه ، وأن يعرف حدوده وحدود غيره . والمصدر الأول لهذا كله هو المنهاج الرباني .

وتأتي بعد ذلك المسؤولية الأُخرى وهي المبادرة الذاتية تحركها الحوافز الإيمانية إلى مسؤولياته وواجباته . هذه المبادرة الذاتية مرتبطة كل الارتباط بكل ماسبق عرضه . فكيف تتولد الحوافز الإيمانية لتدفع المبادرة الذاتية إذا ضعف الإيمان أو

(١) الترمذي : ٢٧/ ١/ ٢٣١٧ . مالك : (رقم : ١٦٢٩) .
(٢) مسلم : المقدّمة .

اضطرب ، وإذا لم يصدق العلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله .[1]

ويظل محور هذه المسؤوليات هو ممارسة منهاج الله بحدود مسؤوليات المسلم وأمانته . ولكنه أثناء هذه الممارسة الإيمانية سيجد أمامه قضايا هو مسؤول عنها لايجد لها نصوصاً في منهاج الله . هنا يكون من مسؤوليته الاجتهاد إذا توافرت الشروط السابق ذكرها كلها ، وإذا عرف حدوده ومسؤولياته التي سيحاسبه الله عليها .

ومن هنا جاء حديث رسول الله ﷺ الذي يحدِّد للمسلم هذه المسؤولية الهامة في الاجتهاد فيما يعرض له عندما تتوافر الشروط السابقة :

فمن حديث وابصة قوله ﷺ : «ياوابصة ! استفت قلبك واستفت نفسك (ثلاث مرات) البرّ ما اطمأنّت إليه النفس ، والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » [رواه أحمد][2]

(١) يراجع كتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ، للمؤلف ، وكتاب : الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام .
(٢) أحمد : الفتح الرباني : ١٩/ ٥٩ .

فالاجتهاد إذن مسؤولية كل مسلم فيما يدخل في دائرة مسؤولياته التي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة . فالطبيب المسلم يجب أن يعرف منهاج الله ويدرسه في حدود وسعه وأمانته حتى يستطيع أن يجتهد فيما يجدّ له من أحداث . والمهندس كذلك ، والتاجر في تجارته ، وغيرهم .

المهندس مثلاً تمرّ عليه قضايا في مهنته ومن خلال مسؤولياته تحتاج إلى رأي وفتوى . والرأي والفتوى تحتاج إلى فهم القضية . والقضية قضية فنّية يحتاج فهمها إلى علم في هذا الاختصاص ، وإلى دراسة مواصفات فنية واسعة وعروض شركات ربما بلغت مجلّدات كثيرة ، ودراسة عقود وماأشبه ذلك . فكيف يمكن لأحد أن يفتي في هذه القضية إلا إذا توافرت فيه هذه الشروط . إن معرفة الدين والشرع ومنهاج الله ، كلٌّ قدر وسعه الصادق ضرورة لاغناء عنها لأي رأي أو فتوى ، ولكن يجب أن ينضم إلى العلم بمنهاج الله وعي هذه القضية الفنية وعياً أميناً .

لانستطيع أن نطلب اليوم من علماء الشريعة أن يدرس كل

واحد منهم جميع الاختصاصات العلمية . ولكننا نستطيع أن نطلب من أصحاب الاختصاصات العلمية أن يدرسوا منهاج الله ويتدبّروه ، حتى يتيّسر لهم ممارسة الحديث الشريف السابق . يضاف إلى ذلك أن تدبّر منهاج الله واجب على كل مسلم قدر وسعه وطاقته ، ولكن دراسة التخصصات الفنيّة ليستْ واجباً على كل مسلم .

ففي ميدان التخصص والمسؤولية والأمانة على كل مسلم أن يجتهد فيما يعرض له من أمر ، بعد أن يستكمل الشروط اللازمة لذلك . ومن واجبه أن يبادر إلى استكمال هذه الشروط .

إن واقعنا اليوم يشهد ظروفاً مغايرة لذلك . الطبيب قد يجهل دينه ، ويضطر العالم الشرعي أن يفتي في بعض الأمور الفنيّة . فلابد أن يعي المسلم اليوم هذه المسؤوليات والواجبات ، فإنه محاسَب عليها غداً بين يدي الله . وكثيرون من المسلمين اليوم لايدركون خطورة هذا الأمر ، فيتهاونون فيه تهاوناً كبيراً .

٨ - المسؤولية الثامنة : المساهمة في تحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة ، وأوّلها : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد :

إذا صدق المسلم بالوفاء بالمسؤوليات السابقة ، فإن

المسؤوليات الأخرى والتكاليف الربانيّة تتفتّح أمامه من منهاج الله ، ومن إيمانه الذي يغذيه منهاج الله ، ومن وعيه للواقع من خلال منهاج الله .

هذه المسؤوليات تصبح مسؤولية الأمة بكامل طاقاتها حين تقوم الأُمة ، وتقوم مسؤوليات الأمة وواجباتها بقيام المسؤولية الفردية كما ذكرنا سابقاً .

ويصبح الوفاء بالمسؤولية الفردية أساساً لبناء الروابط الإيمانية ، ولبناء الأمة لتتابع الأمة الوفاء بهذه المسؤوليات .

إن المسؤوليات التي تُبنَى على المسؤوليات السابقة لايمكن حصرها في هذه العجالة بتفصيل . ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه المسؤوليات تتمثل في قيام الفرد والجماعة بالسعي لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية الثابتة التي سبق أن أشرنا إليها ، والتي نعيد إيجازها هنا : :

- الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد .
- التربية والبناء ، والتعهد والتدريب .
- بناء الجيل المؤمن والجهاد في سبيل الله .
- الأمة المسلمة الواحدة التي يحكمها منهاج الله وتكون

كلمة الله هي العليا فيها .

● الانتشار في الأرض وبناء حضارة الإيمان بدلاً من الحضارة المادية .

ومن أجل هذه الأهداف الربّانية الثابتة تقوم أهداف مرحلية تتحدّد على أساس من منهاج الله والواقع ، تعين على الانتقال من هدف ثابت إلى هدف ثابت آخر ، على طريق ممتدً إلى الهدف الأكبر والأسمى -الجنّة- .

إن كل مسلم مسؤول عن المساهمة في تحقيق هذه الأهداف الربانية في الواقع البشري قدر وسعه وطاقته ، ولايُعذر أحد بالتخلّف عنها إلا بعذر شرعي واضح وتتماسك هذه الأهداف الثابتة فيما بينها ، حتى إذا انتقلنا إلى الهدف الثاني عمل الهدفان الأول والثاني معاً . وتظل الأهداف تمتد من مرحلة إلى مرحلة حتى تعمل كلها معاً . ولقد درسنا «الأهداف» في كتاب لقاء المؤمنين - الجزء الثاني .

وفي هذه المسيرة يصاحبُ المسلم عدة قضايا ضرورية له لمتابعة المسيرة حتى الهدف الأكبر والأسمى . ونوجز هذه القضايا بالنقاط التالية :

١ - إخلاص النيّة الواعية ، النيّة التي عرفت الدرب كله

والأهداف ، النية الخالصة لله ، مع العزيمة والتصميم النابعين من الإيمان والتوحيد واليقين على متابعة المسيرة حتى يلقى المسلم ربَّه .

٢ - مجاهدة النفس لتستقيم على أمر الله ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرويه فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، والذي سبق ذكره .

٣ - أداء الشعائر بخشوع والوفاء بأدائها .

٤ - ذكر الله ليظل اللسان رطباً بذكر الله ، والقلب معلقاً بالجنة والدار الآخرة .

٥ - مصاحبة منهاج الله تلاوة ودراسة وحفظا مع التدبّر .

لابد أن تصاحب هذه القضايا المسلم في مسيرته وهو ينتقل من هدف إلى هدف لينضم الهدفان معاً ، ثم لتنضم الأهداف واحداً بعد الآخر فتعمل كلُّها معاً .

وفي هذه المسيرة كلها يكون من مسؤولياته ومن التكاليف الربانيّة التي عليه ، أن يلتزم جميع قواعد الإيمان والتوحيد وقواعد منهاج الله : من صدق ووفاء ، وبذل وعطاء ، يأتي

الحلال ويدع الحرام كله في جميع ميادين ممارسته مع نفسه وبيته وأرحامه ووالديه ، ووظيفته وتجارته ، وأمته المسلمة كلها .

وفي نهاية هذا الباب نوجز المسؤوليات والتكاليف الربانية بنقاط محدّدة للتذكير والتأكيد وتيسير المراجعة والتدبر :

١ - **المسؤولية الأولى والتكليف الأول على الإنسان** : أن يفكّر تفكيراً منهجيّاً نابعاً من فطرته التي فطره الله عليها ، ومتدبّراً لآيات الله في نفسه وفي الكون كله ، متدبّراً لآيات الله البيّنات التي يبلّغها الرسل والأنبياء الذين خُتِموا بمحمد ﷺ وسلم وبرسالته الكتاب والسنة كما جاءا باللغة العربيّة ، تفكيراً يقود إلى الإيمان والتوحيد وإلى رسالة الإسلام كما جاء بها محمد ﷺ .

٢ - **المسؤوليّة الثانية** : أن يتخذ قراراً بالإيمان أو الكفر أو الشرك وأن يتحمل مسؤوليّة قراره في الدنيا والآخرة .

٣ - **المسؤوليّة الثالثة : الشهادتان** : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ ، وأن يعلنهما وأن يقوم بالالتزام بمقتضياتهما . فالإيمان مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤوليّة وحساب .

٤ - **المسؤوليّة الرابعة** : أداء الشعائر كلها والوفاء بها ، لتكون الشهادتان والشعائر الأركانَ الخمسةَ التي تنهض عليها سائر التكاليف الربّانيّة .

٥ - **المسؤوليّة الخامسة** : طلب العلم فريضة على كل مسلم من منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة .

٦ - **المسؤولية السادسة** : دراسة الواقع ووعيه من خلال منهاج الله وردّ الأمور إليه عن إيمان ويقين وعلم لا عن ظنٍّ وتخمين .

٧ - **المسؤولية السابعة** : ممارسة منهاج الله في الواقع البشري ، ومعرفة المسلم لحدوده ، ومبادرته الذاتيّة بحوافز إيمانية ، والاجتهاد مع مجاهدة النفس في حدود مسؤولياته وأمانته وعلمه .

٨ - **المسؤولية الثامنة** : المساهمة في تحقيق الأهداف الربّانيّة ، وأولها الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، إلى كامل رسالة الإسلام - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - دعوة منهجيّة ، لها نهجها وخطتها على أساس قواعد الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلاله .

٩ - وتمضي من خلال ذلك سائر المسؤوليات والتكاليف المتعلقة بالتكاليف السابقة أو ببعضها أو بواحدة منها : مع نفسه وأهله وأرحامه وأمته والناس كافة .



الباب الثالث

المسؤولية الفرديّة وبناء الأمة المسلمة الواحدة وتميّزها عما هي عليه في المذاهب العَلمانيَّة وسبيل الوفاء بها

الفصل الأول
المسؤوليّة الفرديّة
وبناء الأمة المسلمة الواحدة
وتميّزها عمّا هي عليه في المذاهب العَلمانيَّة

١- دور المسؤولية الفردية في بناء الأمة المسلمة الواحدة وبناء مسؤولياتها :من هذه المسؤوليات التي عرضناها تتفتَّح أمام المسلم سائر المسؤوليات والتكاليف الربانية التي يحددها منهاج الله ويفصِّلها ، لتمارس في الواقع الذي يعيشه المسلم ، والذي يفهمه من خلال منهاج الله .

وإذا كانت هذه هي مسؤوليات الفرد المسلم إلا أن مسؤولية القيام بها لا تنحصر في الفرد المسلم منعزلاً عن الأمة أو منطوياً عنها . إنها في الوقت نفسه مسؤولية الجماعة والأُمة ، حين تتنافس الجهود وتترابط العزائم لتصبَّ كلها في مجرى واحد من الخير والصلاح ، والقوة والعزّة .

فمن هذه المسؤولية الفردية تُبْنَى مسؤولية الأمة من خلال ما يبني منهاج الله من روابط إيمانية ، وما يقوم على ذلك كله من نهج وتخطيط يجمع ويبني ، ونظام إداري يحدّد الصلاحيات

والمسؤوليات والحقوق ، والإشراف والمراقبة والتوجيه والمتابعة .

إن الارتجال وردود الفعل لاتعين المسلم الفـرد ولا الأمة على الوفاء بالمسؤوليات . ولا تفيد الشكوى والنواح على الأطلال .

إن النهج والتخطيـط سمــــة مـن سمات العمل الإيماني والممارسة الإيمانيّة . إنه ثمرة المسـؤوليات التي سبق عرضها حين يصدق المسلم في الوفاء بكل واحدة منها .

إن الإيمان والتـوحيـد وعي وإفـاقـة ويقظـة . إنـه ارتبـاط الإنســان بـربه وخـالقـه ، بـالحق الـذي تقوم عليـه السمـوات والأرض ، والحياة الدنيا والآخرة .

إن الإيمان والتوحيـد هما المفتاح لتدبّـر منهاج الله . وكيف يتدبّـر الإنسان منهاج الله إذا لم يصـدق الإيمان والتوحيـد . لقد جعل الله على قلوب الكافرين والمنافقين أكنّة أن يفقهوا القرآن ، وفي آذانهم وقراً :

﴿ ومن أظلم ممن ذكـر بـآيـات ربه فأعـرض عنهـا ونسي ماقدّمت يداه إنـا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه

وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾
[الكهف : ٥٧]

إن كل واحدة من هذه المسؤوليات تحمل في جوهرها قوة تربط المؤمن بالمؤمن لِتُبنى الأمة المسلمة . وتزداد هذه القوة كلما ازداد صفاء هذه المسؤوليات وصدقها ، ويصبح الوفاء بهذه المسؤوليات أساس بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، وغياب هذه المسؤوليات الفردية يعطل بناء الأمة المسلمة الواحدة ويعطل مسؤولياتها .

٢ - الأخطاء الناتجة عن غياب المسؤولية الفردية :

إذا كانت المسؤوليات الفردية في خطوطها العامة العريضة هي كما عرضناها مبينة على منهاج الله ، فإن تفصيلات هذه المسؤوليات ومنزلتها وأهميتها مفصلة في منهاج الله .

فالشهادتان وأداء الشعائر وذكر الله ، ذلك كله هو أول المسؤوليات بعد الإيمان والتوحيد . بل هي جزء من الإيمان والتوحيد ، وهي الأساس الذي بُني عليه الإسلام بسائر التكاليف الربّانيّة .

وهي مسؤولية كل مسلم في الدنيا وفي الآخرة . وعليها تقوم سائر المسؤوليات ومنها تنبع . وهي تؤلف قاعدة هامة لبناء الروابط الإيمانية وبناء الأمة المسلمة الواحدة .

فإذا كانت هذه هي مسؤوليات الفرد المسلم ، فمنها تتكون مسؤولية الأمة . فإذا غابت المسؤولية الفردية أو اضطربت وتقلصت ، اضطربت مسؤولية الأمة ، وظهرت فيها الدعوات المضطربة والاتجاهات المنحرفة والمبادىء الخارجة عن الإسلام ، من ديكتاتورية وديمقراطية واشتراكية وعلمانية وحداثة بألوانها ومذاهبها المختلفة .

عندما تغري الديمقراطية اليوم بعض المسلمين بزخارفها ، فإن هذا يكون نتيجة لسوء واقع المسلمين ومافيه من ظلم وخوف وقلق وعدم مساواة ، ونتيجة لعدم تطبيق الإسلام تطبيقاً أميناً تبرز فيه عظمة الإسلام وعدالته والحرية المتوازنة الكريمة فيه ، وقواعد المساواة ، والأمن ، وتوزان الحقوق والمسؤوليات ، فينصرف بعض الناس ، لا لإقامة عدالة الإسلام والحرية المتوازنة فيه والمساواة الأمينة في تشريعه ، بل

للبحث عن ذلك في فلسفات بشرية تائهة ، حيث تضيع بذلك جهودهم في الدنيا والآخرة . فاعجب إذا شئت حين ترى داعية مسلماً يدعو للديمقـراطية في أمريكا ، وداعية آخر يـدعو للرفق بأهل الكتاب الـذين يذبّحون المسلمين ليل نهار ، وداعيـة آخر مسلماً يدعو لأوثان أُخرى هنا وهناك .

غياب المسـؤولية الفـردية يجعل الملايين مـن المسلمين غثاء كغثاء السيل ، أو قطيعـاً يُساق إلى هـلاكه ، تحت خَدَرٍ شـديد من دويّ الشّعـارات التي لايصحبهـا علم ولا ممـارسـة أمينـة . ومن دوي الهتافات والتعبيرات العائمة .

إن غيـاب المسـؤوليـة الفرديـة يضع أخطـر العـوائق أمـام صـدق التعامل مع الـواقع ، حيث تُدفَع القطعـان ، كل قطيع بـاتجاه ، فتتصـادم الجهـود أو تموت ، وتقتـل الأوقـات وتُهدَر الطاقات .

وغيـاب المسـؤوليـة الفـرديـة يضيّع على المسلمين حسن تـرتيب الأوليـات ، والخطـوات والأهـداف ، ويفتح أبـواب الفتنة ، ويغيب النهج والتخطيط .

إن غياب المسـؤولية الفرديـة يفتح المجال لظهور مـاأُسميه «**بالطبقة العـائمة**» ، الطبقـة التي تكون مـرتعاً لقـوى الشر ولأعداء الله ، يفسدون فيها ، ويستغلونها لإفساد الآخرين .

إن غيـاب المسؤوليـة الفـردية والـوعي النـاتج عنها يمـدُّ سـاحـات الإشـاعات والقيـل والقال . فتمتـدّ الفتنـة وتظهـر الدعوات المتناقضـة ، وتُستهلك الجهود في محاولات التوفيق بين حقٍّ بيِّن وباطل مكشوف .

هذا كلـه في الحياة الـدنيا . أمـا في الآخرة فـالمصيبة أدهى وأَمـرّ عند غيـاب المسـؤوليـة الفرديـة ، حيث يقف كل إنسـان وحـده بين يـدي الله ، يتخلّى عنـه الأعـوان والأوثـان وكل من ادّعى قوة وسلطاناً :

﴿ ولقـد جئتمـونـا فــرادى كما خلقنـاكم أول مـرّة وتـركتم مـاخـولنـاكـم وراء ظهـوركم ومـا نـرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكـم شركاء لقد تقطّع بينكم وضَلَّ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : ٩٤]

وكذلك :

﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : ٩٣-٩٥]

إن المسؤولية كلها في ميزان الإسلام ممتدة بين الدنيا والآخرة ، لاينفصل بعضها عن بعض ، سواء في ذلك مسؤولية الفرد والجماعة والأُمة والناس كافّة . إن الله ربّ الدنيا والآخرة ، وهو رب العالمين . ومنهاج الله منهج حياة كامل في الدنيا وبلاغ عن الآخرة ، منهج للفرد والأُمة والبشرية .

فالمسؤولية في ميزان الإسلام ممتدة من الدنيا إلى الآخرة ، لايمكن الفصل بينهما ، ويضطرب التصوّر ويختلُّ لو انعزلت مسؤولية عن الأُخرى . فحين يقول رسول الله ﷺ : «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . . .** »[1] ، فإنه يكشف لنا ارتباط المسؤولية في الدنيا بالمسؤولية في الآخرة وامتدادها . كما

(١) عن عبدالله بن عمر . رواه الشيخان والترمذي : البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ ، وفي كتاب الجمعة وكتب أخرى . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ ، الترمذي ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥

يكشف لنا هذا الحديث الشريف أن على هذه المسؤولية الفرديّة تقوم مسؤولية الجماعة والأمة ومسؤولية البشرية كلها .

فلينهض المسلم الذي أوفى بمسؤوليته الأولى ، إذا صدق إيمانه بربّه وأفاق من غفوته ، إلى مسؤوليته الثانية ، إلى منهاج الله تلاوة ودراسة وتدبّراً، ليعرف منه سائر مسؤولياته التي سيُحاسَب عليها .

وسيجد المسلم الصادق الذي يعزم على الوفاء بعهده مع الله ، حين ينهض إلى مسؤولياته التي عرفها من منهاج الله ، أنّ عليه أن يحاسِبَ نفسه بين حين وآخر ، وأن يراقبها ، وأن يقوّم عمله ، حتى يستطيع أن يغيّر مابنفسه إلى طاعة أمينة لله ، حتى يُغيِّر الله لنا واقعنا . وأُذكّر نفسي أولاً وأذكر إخواني المؤمنين بآيات الله بيّنات :

﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً

فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : ١٠، ١١]

وكذلك :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا مابأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال : ٥٣]

٣ - المسؤولية الفردية بين الإسلام وبين المذاهب البشرية :

من أخطر مايصيب المجتمعات البشرية اضطراب المسؤولية الفردية ، اضطراب مسؤولية الإنسان وواجباته وحقوقه ، من خلال ماتتبنّى المجتمعات البشرية من مبادىء وفلسفات .

إذا استعرضنا تاريخ الإنسان وواقعه اليوم نجد أَن المسؤولية الفردية مختلَّة ومضطربة بين انفلات شديد ، كما هي الحالة في المجتمعات الغربية وما تتبناه ديمقراطيتها من حرّية فرديّة واسعة ، أَغرقت الإنسان في شهواته وأهوائه المادية حتى خدّرته ، فاستسلم لهذا النظام ، وبين قيود خانقة ، كما هي في ديكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتاريا) وما تسْتَبِدُّ به من حكم ديكتاتوري مطلق أرهب الناس حتى استسلموا إليه ، وبين نظم أخرى مختلفة أضاعت الإنسان في متاهات بعيدة بين

اضطراب مسؤولياته واضطراب حقوقه ، مما أورث المجتمعات البشرية صراعات ممتدة وحروباً طويلة ، واختلالاً ظاهراً في الموازين والتقويم ، واضطراباً في معنى العدالة والحرّية والمساواة ، حتى لم تعد الشعارات كافية لإنقاذ الإنسان ، ولا اللجان والجمعيات والهيئات القومية والدولية . وامتلأت الأرض فتنة وفساداً في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس :

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم : ٤١]

هذه القضية ، قضية الإنسان في الحياة الدنيا ومسؤوليته ودوره فيها ، شغلت الفلاسفة والمفكرين في مختلف الأمم والشعوب منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

وظهرت فلسفات كثيرة حول هذا الموضوع وما يتفرّع عنه من قضايا . ولكن هذه الفلسفات البشرية جاءت مضطربة مبهمة متناقضة ، تأخذ جزئية واحدة من الحياة الدنيا ، ثمّ تبني عليها تصورها الكامل للكون كله والحياة كلها ، والإنسان بامتداد عصوره وأجناسه وشعوبه . إنّ الخطأ كبير

جداً ، حين يحاول إنسان محدود الوسع والطاقة ، محدود العلم ، محدود العصر الذي يعيش فيه ، أن يفسِّر الكون كله منذ نشأته التي لم يشهدها إلى نهايته التي هي أيضاً من نبأ الغيب . لذلك جاءت التصوّرات مضطربة متناقضة ، تختلط بالأساطير ، والوهم والضلال .

من هنا جاء تميّز نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان ، لأنها جاءت من عند ربّ الكون والحياة والإنسان ، من عند الله الذي لاإله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة :

﴿ عالمُ الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً ﴾ [الجن : ٢٦-٢٨]

وكذلك :

﴿ قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون * بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ [النمل : ٦٥، ٦٦]

ولذلك جاءت جميع الفلسفات البشرية معزولة عن علم الآخرة ، تحمل معها الأساطير والخرافات والأوهام ، لاتقدّم نهجاً متوزانا لحياة الإنسان ، ولا لمسؤولياته ولا لحقوقه . إنها بنت تصوّرها العام على جزئية أو بعض الجزئيات ، وإنها عزلت الحياة الدنيا عن الآخرة فكراً وتصوراً ومسؤوليات وحقوقاً .

إن من أحدث هذه التصورات ماعرضه «ستيفن هوكنج Stephen W. Hawking » حين حاول أن يفسّر نشوء الكون ونهايته في كتابه : « موجز التاريخ للزمن "A Brief History of time" عن طريق المعادلات الرياضية وبعض الظواهر الكونيّة ، فاصطدم بقضايا كثيرة ، وجعل من بعض الفرضيات والظنون حقائق . وحين تحدث عن الإسلام افترى عليه ونحّى البحث العلمي جانباً ، وأخذ بالوهم ، وخلط الإسلام بالنصرانية واليهودية خلطاً عجيباً جاهلاً . ولم يعرض مايقوله الإسلام عن بدء الكون ونهايته ، وعرض أن القديس « **أو جستين**» اعتبر أن بداية الكون كانت قبل خمسة آلاف سنة في كتابه «**مدينة الله** » ، إن الإسلام لم يحدّد زمناً معيناً لبدء خلق الكون أو الإنسان ،

وإنما قدّم الحقـائق المطلقة التي تبيّن كيف خلق الله الكـون ومدة خلقـه لـه ، وكيف خلق الإنســان . ولكن «ستيفن هـوكنج » استعرض أفكار أرسطو الوثنيـة ، وأفكار «إما نيويل كانت » في كتــابـه «نقــد العقل الخالص » الصـادر سنــة ١٧٨١م . كما استعرض بعض النظريات العلمية لنيوتن وكارل بوبر وآنيشاتين وغيرهم . وحصــالـة ذلك كلــه أنـه لم يصل أحـد إلى الحقيقـة المطلقـة بـالنسبـة للكـون ونشأتــه ، وظلت آراؤهم ضربـاً من الظنون والتخمين .

ومن أحدث الكتب التي صدرت كتـاب : « نهاية التاريخ والرجل الـواحد » لفـرانسيس فوكـوياما . يعتبر فـوكويـاما أن التـاريخ سينتهي عنـد الـديمقراطيـة الحرّة التي تسـود العـالم . ووصل إلى هــذه النتيجـة بـأُسلــوب غير علمي ولا منطقي ، مستعرضاً عـدداً من الفلسفات التي عرفتها البشريـة استعراضاً مضطربـاً ، بأسلوب غير أمين ، ملغياً التصـور الإيماني كله عن دراسته ، عــازلاً الدنيا عن الآخـرة ، وكأنه أخذ بينـه وبين نفسه بـالنهج المادّي الإلحادي في تفكيره وبحثـه . إن مــن يقـرأ هـذا

الكتاب يشعر بالظلمات التي يعيشها الكاتب ، الظلمات التي حاول من خلالها أن يرى الإسلام فألقى الله على بصره غشاوة فاختلطت الأمور لديه .

قبل ذلك ، ظن أهل المادية الجدلية والمادية التاريخية أن نهاية التاريخ في تطوره ونموه هي الشيوعية التي تمثل خاتمة مطاف الاشتراكية عند فردريك إنجلز وعند ماركس وغيرهما . ثم مضت سنة الله لنرى أن النهاية هي نهاية الشيوعية وسقوطها .

إن جميع هذه الفلسفات سواء أكانت «**مادية أم مثالية** » نزلت بالإنسان إلى أدنى مستوى وهبطت به إلى مستوى حيوانيّ ، وحاولت أن تُبرز إنسانيّته بشعارات مجزوءة ، وبقطع متناثرة مفصولة بعضها عن بعض ، فعجزت بذلك عن أن ترسم صورة قريبة للإنسان ، ولا هي ارتبطت بالإيمان بالله وتوحيده وعبودية الإنسان لربه وخالقه ، لتقدم ، لو فعلت ذلك ، الصورة الأسمى والأصدق . وبذلك أضاعت هذه الفلسفات حقيقة مسؤولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وخلطت بعض حقوقه المادية خلطاً أفسدها ، وعزلت الحقوق عن المسؤوليات .

فإذا كان أفلاطون جعل الشهامة » ، كما يفهمها هو ، هي محرك الإنسان والتاريخ ، واعتبر ميكيافيلّي الرغبة في المجد هي التي تفعل ذلك ، واعتقد «هوبز» أن أقوى انفعال إنسانيّ « هو الخوف من الموت البشع» ، وأقوى الأمور الأخلاقية هو الحفاظ على النفس ، ورأى الكسندر هاميلتون أن حب الشهرة هو الأقوى ، وجيمس ماديسون رأى الطموح ، وهيجل تمسّك برغبة الإنسان بعرفانه واعتراف الناس به ، ونيتشه احتقر الإنسان حتى جعله وحشاً بخدود حمراء وردية ، فإن هؤلاء جميعهم ، وآخرين كثيرين مثلهم من الفلاسفة ، أضاعوا الإنسان في وحل الرغبات المادية ، من خلال شعارات متقاربة في ماديَّتها وألفاظ متدنيّة في شهواتها ، ثمّ رموا البشرية كلها في خضم بحار من مجازر الظلم والعدوان ، امتدت في التاريخ البشري حتى يومنا هذا ، وستمتد على حكمة لله بالغة ، وقدر غالب ، ليُمحِّص الله الإنسان ، ويميز الخبيث من الطيب ، ولتقوم الحجة على الإنسان يوم القيامة أو تقوم له .

عندما يعرض «فوكوياما» في كتابه المذكور أعلاه «نظرية

التحديث » التي ترى الإنسان بصفته الأساسية حيواناً اقتصادياً تحركه رغبته وعقله ، وتكون العملية الجدلية للتطور التاريخي مشابهة للمجتمعات الإنسانية المختلفة [1] ، فإنه يكون قد هبط بالإنسان إلى «**أسفل سافلين**» .

وكذلك يفعل هيجل عندما يعتبر أن المحرّك الأول للتاريخ الإنسانيّ ليس الدافع الاقتصادي ولكن الصراع من أجل العرفان والتقدير في الحياة الدنيا . [2]

ولكن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان ، ويرفعه إلى الدرجة الكريمة التي خلقه الله لها ، ليحتلّها بالأمانة التي يحلمها ، والعبادة التي خُلِق لها ، والخلافة التي جُعِلتْ له ، والعِمارة التي أُمر بها ، لتتحدَّد مسؤوليات الإنسان فرداً وجماعة وأمّة على أساس ، ولتتحدَّد أيضاً حقوقه ، ولتتناسق الحقوق والمسؤوليات من خلال المنهاج الربّاني نوراً وهدى للبشرية كلها . فحين يتخلّى الإنسان عن ذلك فإنه يهبط إلى أسفل سافلين :

(١) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ والرجل الواحد - ترجمة د. حسين الشيخ (ص : ١٥٤) .

(٢) نفس المرجع السابق : (ص : ١٥٥) .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٤-٨]

وكذلك :

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [الإسراء : ٧٠]

لقد هبطت بعض الفلسفات بالإنسان حتى جعلته حيواناً ، وغالت بعضها ورفعته حتى جعلته إلهاً ، وجاء الحق من عند الله يكرم الإنسان بمسؤولياته في الحياة الدنيا وحقوقه فيها ، ويجعل أمر الإنسان لاينتهي في هذه الحياة الدنيا ، وإنما يوفّى أجره في الآخرة : **إما إلى جنّة وهذه غاية التكريم ، وإما إلى نار وهذه جزاء الظالمين المفسدين .**

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم

كالذيـن آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محيـاهم ومماتهم ساء مايحكمـون * وخلق الله السموات والأرض بـالحقِّ ولتُجزى كلُّ نفس بما كسبت وهم لايُظلمون ﴾

[الجاثية : ٢١ ، ٢٢]

لقد كرّم الله الإنسان بخلقه ، وكرّمـه بالأمانة التي حملها ، وكرمه بالنهاية التي يبلغها إن هو أوفى بعهده وأمانته ومسؤولياته ، وكان من الشاكرين .

هذه هي نهايـة التاريخ كما بينهـا لنا منهـاج الله الحق الذي لايأتيـه البـاطل من بين يـديـه ولا من خلفـه ، لا كما يـدعي «فوكو ياما » من خلال أهواء وعلم مضطرب متناقض .

من هذا العرض للمسؤولية الفـردية نستطيع أن ندرك أهمية النظرية العامة للدعـوة الإسلامية وهي تبرز أهم حقوق الإنسان وأهم واجبـاته ، والموازنـة الدقيقة التـي يعرضهـا منهاج الله بين الواجبات والحقـوق . ورأينا كيف أن التصور الذي نعـرضه هنا نـابع من القـاعـدة الصلبـة للنظـريـة العـامـة - قضيـة الإيمان والتوحيد والدعوة إلى الله ورسوله .

ومن الـركنين الأساسيين : المنهـاج الـرباني والـواقع . كما نرى أن اضطراب المسـؤولية الفردية نـاتج عن المشكلات الأربع الرئيسة في الواقع ، وأن المعـالجة تحتاج إلى نهج وتخطيط نابع من الأسس الأربعة التي تمثل العنصر الأول من عناصر التنفيذ .

ونـرى من هـذا العـرض أهميـة المسؤوليـة الفـرديـة في بنـاء مسؤولية الجماعـة والأمة . فهي قضية هامة على طـريق بناء الأمة المسلمة الـواحدة في الأرض ، الأمـة التي يحكمهـا منهاج الله ، وتكون فيها كلمة الله هي العليا في جميع أمورها وقضاياها .

ونرى هذه القضيـة اليوم لتكون قاعدة من قـواعد التصوّر الإسلامي في ميدان الدعـوة والتربية والتدريب ، وإعداد الجيل المؤمن الذي يتماسك بـروابطه الإيمانيّة حين يصدق أبنـاؤه الوفاء بالأمـانة والعهـد الأول مع الله والولاء الأول مع الله ، وكـل عهد وولاء ينبع منهما ويـرتبط بهما في الحيـاة الدنيـا ، وبكل مـايترتب على ذلك من مسؤوليات وواجبات .

الفصل الثاني
المسؤوليّة الفرديّة
وسبيل الوفاء بها

إن هذه المسؤوليات والتكاليف الربانية الثمانية تشمل في طياتها جميع ماورد في منهاج الله من مسؤوليات وتكاليف أخرى، كُلّها مرتبطة بهذه التكاليف الثمانية أو ببعضها أو بواحدة منها .

فالعلاقات بين المسلمين يجب أن تقوم على أساس منهاج الله ، نابعة من الولاء الأول لله والعهد الأول مع الله والحب الأكبر لله ولرسوله ، لتقوم أخوّة الإيمان على أساس ذلك ، ولتتحقق هذه الأخوة في الواقع العمليّ في حياة المسلم .

وكذلك روابط الأرحام وبرّ الوالدين وحقوق الجار والرفقة ، كل ذلك يجب أن يوفي به المسلم لأنه جزء من منهاج الله المتكامل وجزء من التكاليف الربانيّة .

والعلاقات مع غير المسلمين تخضع أيضاً إلى منهاج الله

وتقوم على أسسه الرئيسة التي يمكن إيجازها بنقاط سريعة :

١ - أن يكون المسلمون أمة واحدة ليكـون لهم جميعاً علاقة واحدة مع غير المسلمين ، فـلا تتناقض ولا تتعـارض ولا يفسد بعضها بعضها .

٢ - الانطلاق مـع غير المسلمين بدعـوتهم إلى الإسلام كما جاء من عنـد الله دعوة جليّة صريحة لاتُخفي من الكتـاب والسنة شيئاً ، ولا تتناقض معها . تنطلق الدعـوة انطلاقا واعيا منهجيّا بالحكمة والموعظمة الحسنـة وبالتي هي أحسن ، دون أي تنازل أو مساومة أو إخفاء أو تردد ووهن .

٣ - أن يُفهـم أن الله قد حـدد تفصيلات العـلاقة مع غير المسلمين منهجاً متماسكاً يقـوم على أسسه الربانيّة التي نـوجزها هنا .

٤ - أن يُعرَف بشكل واضح لامـراء فيه أن الموالاة هي بين المؤمنين ، وأنها هي رابطتهم الـربـانيّـة التي ينشأ عنهـا حقـوق وواجبـات ، ممـا ليس لغير المسلمين ، وأن هـذه الموالاة بين

المؤمنين نابعة من الولاء الأَول لله والعهد الأَول مع الله والحب الأَكبر لله ورسوله . فإن اضطرب الولاء الأول والعهد الأول والحب الأَكبر اضطربت الموالاة .

٥ – أن يُعرَف منذ البداية أن أساس التعارف بين المسلمين وغيرهم ليس مجرد تعارف دنيويٍّ ماديّ ، ولكنه دعوة وبلاغ يقوم عليه التعارف ، وليكون أكرم الناس عند الله أتقاهم . إنه تعارف هادف يحمل رسالة ربّانيّة أُمرنا بإبلاغها للناس كافة إبلاغاً منهجياً واضحاً واعياً بأحسن الأساليب وأقواها .

وكذلك يلتزم المسلم بجميع أحكام الإسلام في البيع والشراء وسائر أبواب التعامل ، والزواج والطلاق ، والتربية والسياسة والاقتصاد والحكم .

وبإيجاز فإن جميع التكاليف الربانيّة تجتمع في ممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ .

أمام هذه المسؤوليات والتكاليف يقف بعض المسلمين مترددين خائفين . ربما يريد بعضهم التكاليف الهيّنة الليّنة ،

وربما يعجز بعضهم عن تنفيذ مايظنه كثيراً ، فيوسوس له ، الشيطان بالتراخي والتهاون :

﴿ و إذْ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقّ الحقَّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [الأنفال : ٧ ، ٨]

وربما كان بعض الناس يريدون الدنيا ويخفون ذلك في صدورهم ويتأوّلون الآيات والأحاديث تأويلاً لن يغني عنهم عند الله شيئاً مهما زيّن لهم الشيطان أهواءهم .

﴿ ... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ... ﴾ [آل عمران : ١٥٢]

ولكن الأمر الصادر للمؤمنين المتقين غير ذلك :

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده .. ﴾ [الحج : ٧٨]

﴿ يـاأيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في

سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١]

وهكذا تتوالى الآيات لترسم صراطاً مستقيماً وسبيلاً واحداً للمؤمنين ليس لهم سواه . وإنما نذكر هنا قبسات لتُذكِّر وتُشير . ولقد يسّر الله كتابه العزيز ليُتلى ويُتدبّر :

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾

[القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

وعندئذ تسهل التكاليف على المؤمن وهو يمضي على نهجٍ بيّن وصراط مستقيم . فإذا اختلط عليه الدرب واضطرب السبيل وتشعّبت السُبُل فعندئذ يجد الإنسان الصعوبة بعد الصعوبة والأهواء تتنازعه ، والدروب تتقاذفه .

فوضوح الدرب والأهداف ، وجلاء النهج والسبيل ، هو الذي ييسّر على المؤمن هذه التكاليف . وصفاء الإيمان والتوحيد يوفّر في نفسه الحوافز الإيمانيّة ، والعلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلاله يضيء له الدرب ويشقّ له الطريق ،

ويوفّر له الأسس الضرورية ليضع لنفسه النهج التفصيلي والخطة التطبيقية .

وعلى هذه الأسس ننصح المسلم أن يلتزم ، بالإضافة إلى النهج العام للدعوة الإسلاميَّة ، بالخطة اليومية والخطة الأسبوعية والخطة السنوية ، لتيسير الممارسة عليه[1] ، وأن يلتزم كذلك بالمنهاج الفرديّ وبمنهج لقاء المؤمنين . فإن هذا كله يسهّل على المسلم أن ينهض إلى التكاليف الربانيّة بعزيمة وقوة ، ذلك لمن استقرّ في قلبه الإيمان وعزم على أن يصدق عهده مع الله .

إن النظرية العامّة للدعوة الإسلامية التي نوجزها في آخر هذا الكتاب ، والنهج العام بكامل تفصيلاته ، إنما وضعا لتحقيق هذا الهدف الكبير : مساعدة المسلم والأسرة والجماعة والأمة على الوفاء بالتكاليف الرّبانيّة كلها ، والوفاء بالأمانة التي حملها الإنسان ، والعبادة التي خُلِقَ لها ، والخِلافة التي جُعِلتْ له ، والعمارة التي أُمِر بها ، لينشر بها حضارة الإيمان والتوحيد في الأرض :

---

(١) يراجع كتاب : النظرية العامة في الدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء : (ط : ٣) : الباب السادس - الفصل الثاني . من أجل تفصيلات عن هذه الخُطط .

العبادة .

الأمانة .

الخلافة .

العمارة .

ونورد الآن موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية التي ينطلق منها النهج العام وتفصيلاته ، والفكر والدعوة ، والتجارة والاقتصاد والسياسية ، والدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء ، والأدب والفن .

الفصل الثالث
مـوجـز
النظرية العامة للدعوة الإسلامية

نورد هنا موجزاً سريعاً للنظريـة العامة للدعوة الإسلامية ، ونجد تفصيلات كل جزء منها في دراساته وكتبه الخاصة به .

تتألف النظرية العامة من البنود التالية ، وهي :

١ - القاعدة الصلبة .

٢ - الركنان الرئيسان .

٣ - المشكلات الأربع الـرئيسية التي تتحـوّل لدى الـدعاة إلى أسس أربعة .

٤ - العناصر الضرورية للتنفيذ والممارسة في الميدان .

٥ - المضيّ على الصراط المستقيم دون توقف ولا انحراف ، والنمـو والتطـور في الجهـد البشريّ المؤمن على أسـاس من منهاج الله ووعي الواقع من خـلاله ، وعلى أساس الإتقان والإحسان .

٦ - الهدف الأكبر والأسمى الدار الآخرة ورضوان الله والجنة .

* * *

١ - القاعدة الصلبة :

هي قضيّة الإيمان والتوحيد ، وهي جوهر الدعوة الإسلامية وحقيقتها ، وهي القضية الكبرى في حياة كل إنسان والحقيقة الكبرى في الكون ، والهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلامية ، والمنطلق والزاد الرئيس الأول للداعية .

٢ - الركنان الرئيسان :

هما : المنهاج الرباني - قرآناً وسنة ولغة عربيّة - ثم الواقع الذي يُدرَس من خلال منهاج الله . ويُدرَس كلّ من الركنين دراسة منهجيّة تخضع إلى خطة ونهج . وتكون دراسة منهاج الله وتدبره صحبة عمر وحياة ، يؤخذ كله ، ولا يؤخذ جزء ويترك جزء . والقاعدة الصلبة والركنان الرئيسان يكوِّنان الزاد الرئيس الضروريّ للداعية والدعاة .

٣ - المشكلات الأربع الرئيسة :

عندما ينزل الدعاة إلى الميدان بزادهم الحق يجدون أمامهم مشكلات كثيرة جداً وقضايا لاتكاد تحصر . ولو صُرِفت الجهود على كل قضية جزئية لطال الأمر وضاعت الجهود وما بلغنا

الغـايـة . ولكنّ جميع القضـايا والمشكـلات يمكن أن تعـود إلى واحدة أو أكثـر من المشكلات الأربع الـرئيسة ، التي بعـلاجها يسهل علاج سائر المشكلات :

أ - الخلل في التصـور لقضيـة الإيمان والتـوحيـد ، وعـدم إنـزالها منـزلتهـا العادلـة الأمينـة ، والخلل في الجهـود المبذولة من أجلها .

ب - هجـر منهـاج الله والخلل في الارتباط بـه وفي دراستـه وتدبره ، حتى لم يعدْ يؤدي الـدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوّة الخاتمة .

جـ- الخلل في فهم الواقع ، وعدم ردّه إلى منهاج الله .

د - الخلل في الممارسة والتطبيق في الواقـع . وهو خلل ناتج عن المشكلات الثلاث السابق ذكرها .

٤ - العناصر الضرورية للتنفيذ في الميدان :

أ - الأسس الأربعـة ، وهي المشكـلات الأربع الـرئيسـة السابق ذكرها ، تتحول لدى الدعاة إلى أسس أربع ، فتصبح : صفـاء الإيمان والتوحيـد وصـدقه ، صـدق

العلم بمنهاج الله ، صدق وعي الواقع من خلال منهاج الله ، سلامة الممارسة الإيمانية .

ب - النهج الإيماني للتفكير .

جـ- النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية .

د - النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة الإسلامية .

هـ - الإدارة والنظام .

و - ميزان المؤمن .

ز - المؤسسات الإيمانيّة .

ح - التقويم الدوري .

٥ - المضيُّ على الصراط المستقيم دون توقّف ولا انحراف :

على أساس من الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني ووعي الواقع من خلاله ، ليدفع هذا المضيُّ عناصر التنفيذ كلها :

الأسس الأربعة ، النهج والتخطيط العام للدعوة ، النهج لكل ميدان ، الإدارة والنظام ، ميزان المؤمن ، المؤسسات الإيمانية ، التقويم ، ويدفع هذا كله إلى نموِّ الإتقان والإحسان في العمل كله .

٦- الهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة ورضوان الله والجنة .

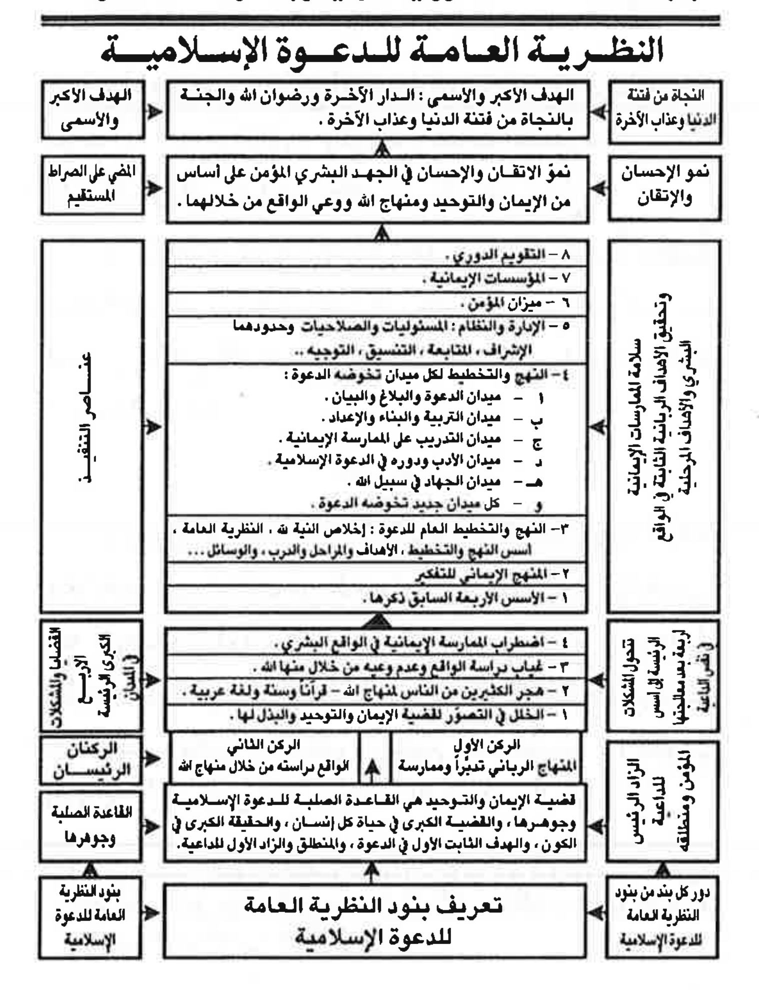
هذا هو موجز سريع للنظريـة العامة للدعوة الإسلامية ، يـوضحها الـرسم المرفق ، وتأتي الدراسـات التفصيليّة في سـائر كتب الدعوة التي صدرت بخصوص كل جزء منها .

نسأل الله أن يتقبَّل منا عملنا هذا ، ويجعله نصحاً خالصاً صادقاً للمسلمين بعامة والدعـاة بخاصّة ، عسى أن يكون منه أسـاس صـالح للقـاء المؤمنين على الـدرب الممتـدّ لبنـاء الأمـة المسلمة الواحدة .

* * *

وبصورة عـامة سيجـد المسلم الـداعية صعـوبات أمـامه وتحدّيات ، وسيُخفِّف من آثـارها عليه صفاء إيمانـه وإخلاص نيّته ، وصدق علمه بمنهاج الله ، ثم الالتزام بالنهج والتخطيط والمراجعة والتقـويم ، مبتدئاً بنفسـه بالخُطة الـوميّة والأسبـوعية والسنويـة ، والمنهاج الفرديّ ، ومنهج لقـاء المؤمنين ، والتقويم الدوري [1] ، وغير ذلك من تفصيلات النهج العام .

(١) يراجع كتـاب : النظريـة العامـة للدعوة الإسـلامية نهج الـدعوة وخطـة التربية والبنـاء من أجل دراسـة النهج والتخطيط : الباب الثـالث - الفصل الثـاني ، والتقويم الباب التامن - الصل الرابع .


النظرية العامة للدعوة الإسلامية
النجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة
الهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة ورضوان الله والجنة بالنجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة .
الهدف الأكبر والأسمى
نمو الإحسان والإتقان
نموّ الاتقان والإحسان في الجهد البشري المؤمن على أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلالهما .
المضي على الصراط المستقيم
سلامة الممارسات الإيمانية وتحقيق الأهداف الربانية الثابتة في الواقع البشري والأهداف المرحلية
٨ - التقويم الدوري .
٧ - المؤسسات الإيمانية .
٦ - ميزان المؤمن .
٥ - الإدارة والنظام : المسئوليات والصلاحيات وحدودهما الإشراف ، المتابعة ، التنسيق ، التوجيه ..
٤ - النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة :
ا - ميدان الدعوة والبلاغ والبيان .
ب - ميدان التربية والبناء والإعداد .
ج - ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية .
د - ميدان الأدب ودوره في الدعوة الإسلامية .
هـ - ميدان الجهاد في سبيل الله .
و - كل ميدان جديد تخوضه الدعوة .
٣- النهج والتخطيط العام للدعوة : إخلاص النية لله ، النظرية العامة ، أسس النهج والتخطيط ، الأهداف والمراحل والدرب ، والوسائل . . .
٢ - المنهج الإيماني للتفكير
١ - الأسس الأربعة السابق ذكرها .
عناصر التنفيذ
تحول المشكلات الرئيسة إلى أسس أربعة بعد معالجتها في نفس الساعة
٤ - اضطراب الممارسة الإيمانية في الواقع البشري .
٣ - غياب دراسة الواقع وعدم وعيه من خلال منهاج الله .
٢ - هجر الكثيرين من الناس لمنهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية .
١ - الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد والبذل لها .
القضايا والمشكلات الأربع الكبرى الرئيسة في الميدان
الركن الأول المنهاج الرباني تدبراً وممارسة
الركن الثاني الواقع دراسته من خلال منهاج الله
الركنان الرئيسان
الزاد الرئيس للداعية المؤمن ومنطلقه
قضية الإيمان والتوحيد هي القاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية وجوهرها ، والقضية الكبرى في حياة كل إنسان ، والحقيقة الكبرى في الكون ، والهدف الثابت الأول في الدعوة ، والمنطلق والزاد الأول للداعية.
القاعدة الصلبة وجوهرها
دور كل بند من بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية
تعريف بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية
بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية

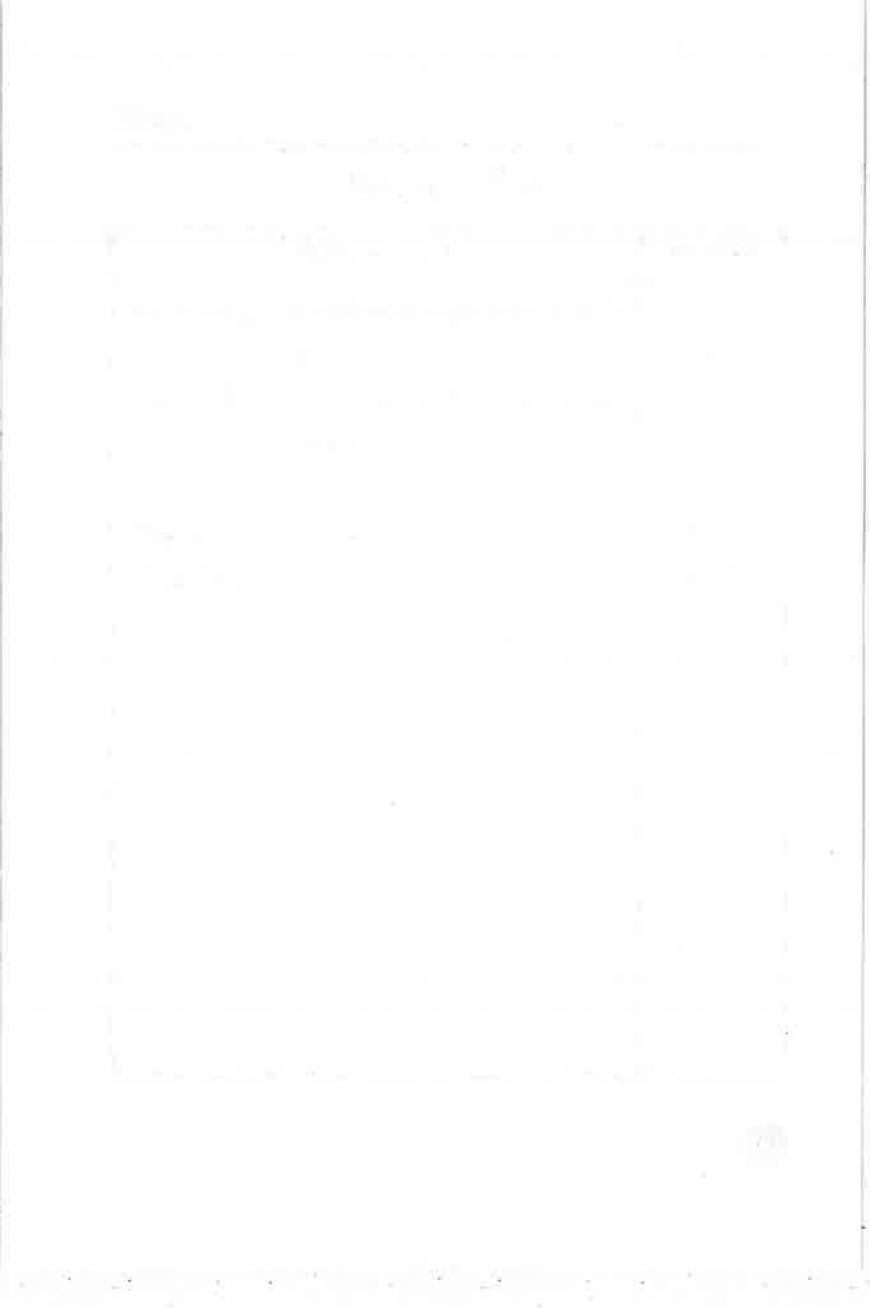
فهرس كتاب
المسؤولية الفردية
أسسها ، وتكاليفها ، وتميزها

فهرس كتاب

فهرس كتاب

فهرس كتاب

فهرس كتاب



كتــب المؤلــف

الرقم	الموضـــــوع	الطبعة
أولاً : الفكر والدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الاسلامية:		
١	النظريـة العامـة للدعـوة الإسلاميـة والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين .	ط ٢
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العـامة للدعوة الإسلاميـة - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط ٢

كتب المؤلف

الرقم	الموضوع	الطبعة
١٢	الفقه : امتداده وشموله بين المنهاج الرباني والواقع	ط ١
١٣	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط١
١٤	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٥	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميّزها	ط ١
ثانياً : أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ :		
١٦	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
١٧	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٨	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣
١٩	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٣
٢٠	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٢١	الخشوع	ط٢
ثالثاً : بعض القضايا الفكرية في الواقع وبعض أحداثه :		
٢٢	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
٢٣	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤

كتـــب المؤلــف

الرقم	الموضـــــــــوع	الطبعة
٢٤	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢٥	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٦	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ٢
٢٧	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٨	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية .	ط١
٢٩	على أبواب القدس	ط٢
٣٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٣١	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
رابعاً : الأدب الملتزم بالإسلام والنصح «النقد» الأدبي ، والردّ على المذاهب الأخرى :		
٣٢	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٣
٣٣	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١

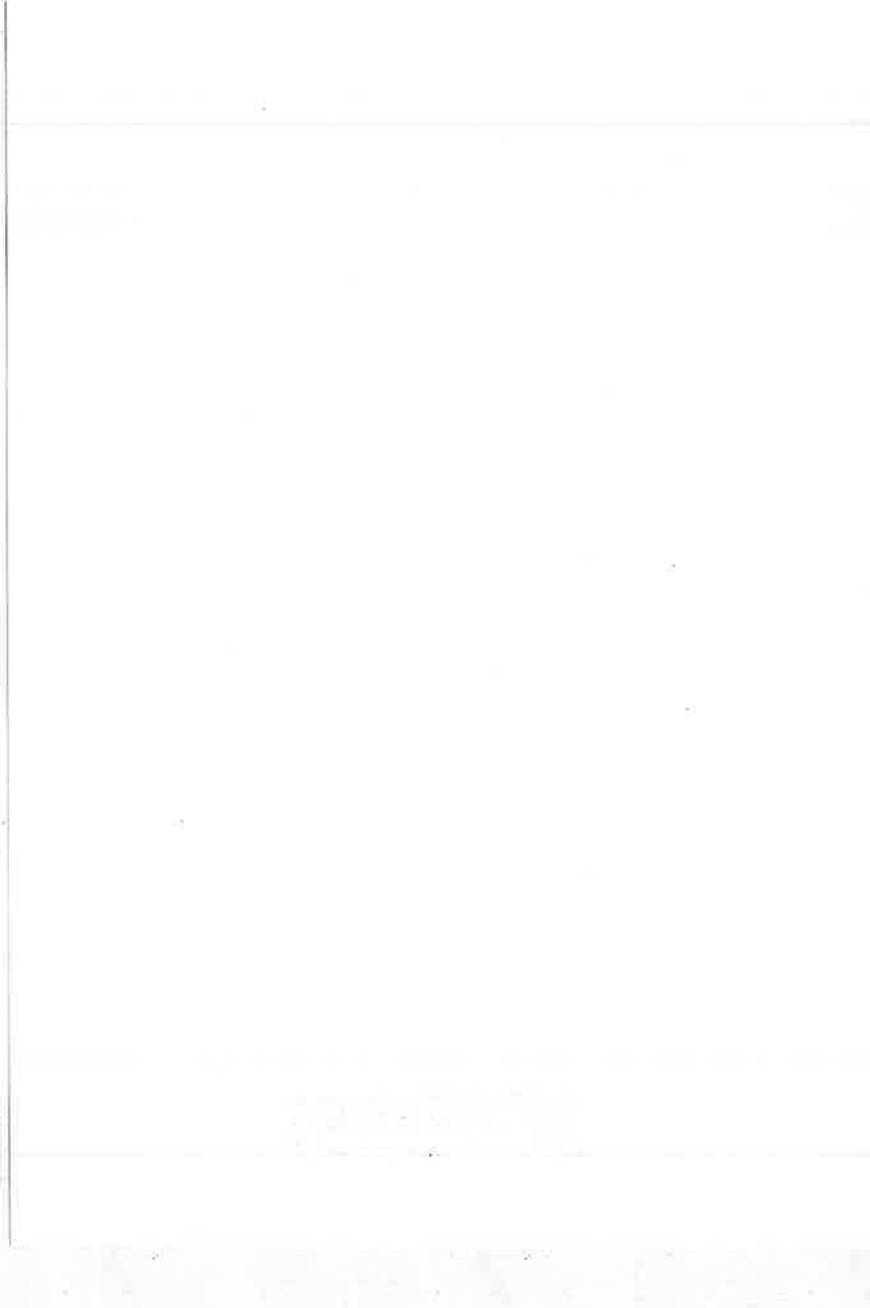
كتــب المؤلــف

كتـــب المؤلـــف

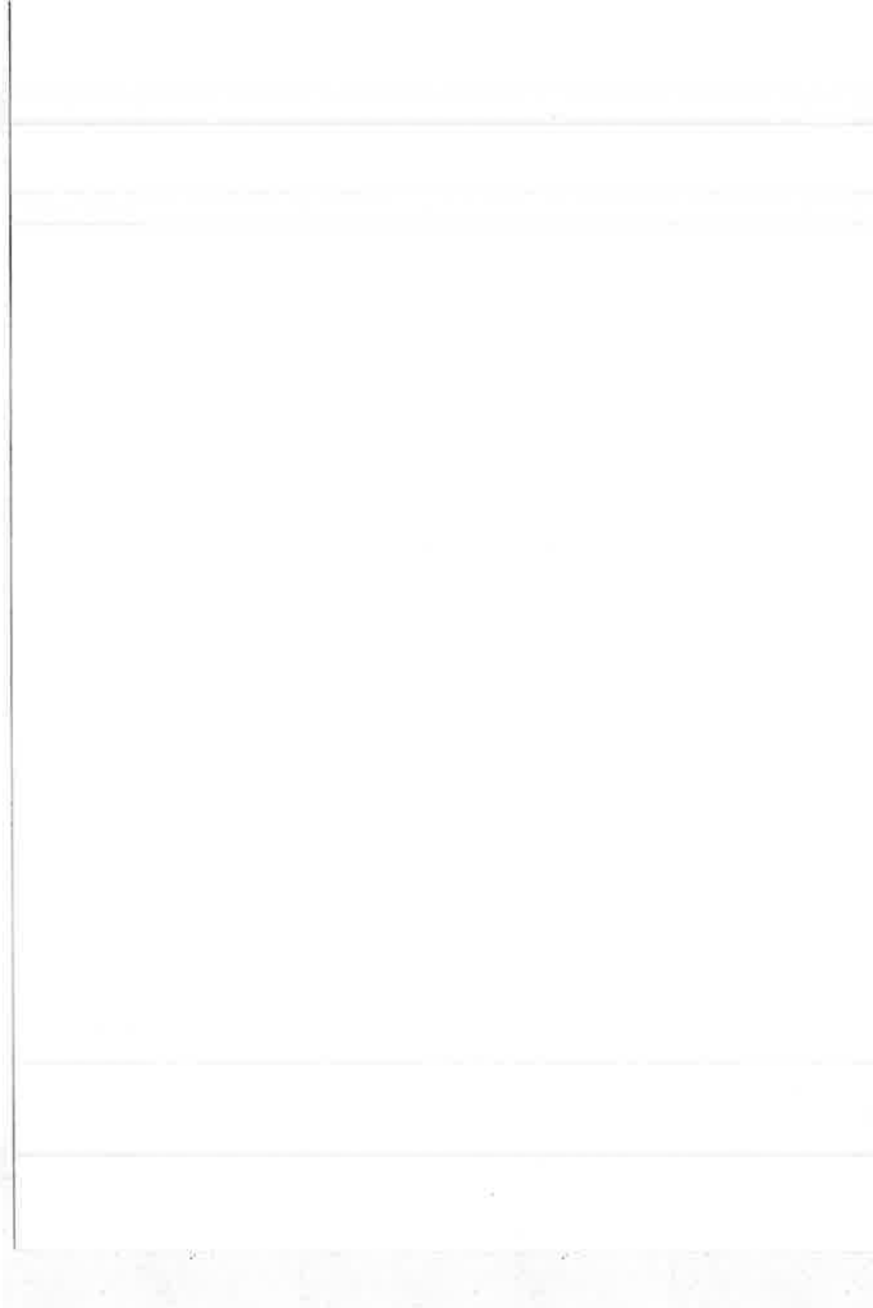
الرقم	الموضـــــــوع	الطبعة
٤٦	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤٧	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٨	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٩	ملحمة الغرباء	ط ٣
سابعاً : في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٥٠	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ٢
ثامناً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٥١	لقاء المؤمنين - الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٥٢	فلسطين بين المنهـاج الـربـاني والـواقع «باللغة التركية »	ط ١
٥٣	فلسطين بين المنهـاج الـربـاني والـواقع «باللغة الانجليزية »	ط ١
تاسعاً : علــوم أخرى :		
٥٤	دراســة الموجــات الإلكترومغنــاطيسيــة المتوسطة «بالانجليزية»	ط١

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري والإخراج بالتعاون مع :
مركز حسن للطباعة - الرياض - هاتف ٠١/٤٠٥٥١٤٥




مطابع الحميضي
تلفون: ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس: ٤٥٩٢٢١٧



مع هذا الكتاب

إن دور المسؤولية الفرديّة في الإسلام من أخطر القضايا التي يجب طرحها اليوم. لقد غاب هذا الدور عن واقع المسلمين قروناً طويلة، حتى جمع التاريخ لنا اليوم حشوداً هائلة من المنتسبين إلى الإسلام، تطويهم الغفوة والسبات العميق في لهو وفتنة، أو في تيه وظلام، أو في فاحشة وخمور ومخدرات، أو في عصبيات جاهلية، تأكل الجهود وتقتلع الغراس وتسحق الثمار، وتنبت الفرقة والتمزق والصراع على شهوات الدنيا ومصالحها وعرضها الزائل، أو تغيب الحشود في خدر وشلل، أو كبر وغرور.

لقد كانت هذه الحشود الهائلة مرتعاً خصباً لأعداء الله، حتى أصبح الكثيرون ينسون التكاليف الربانية، فأهمل المسلمون بعضهم بعضاً، وافترقت الجهود فلم تعد تجتمع لإيقاظ النائمين، أو إنقاذ الضالين. فكم من الناس يغادرون هذه الدنيا على شرك وفتنة تلقيهم في النار، حين لم يجدوا من يلتفت إليهم فينقذهم أو يوقظهم، وحين فصل الدعاة بين أهداف وأهداف، ومسؤوليات ومسؤوليات.

إن المسؤولية الفردية في الإسلام أساس ضروري لقيام مسؤولية الجماعة والأمة، وأساس ضروري لتوحيد الجهود في واقع الدعوة الإسلامية، وأساس ضروري لبناء الأمة المسلمة الواحدة، الأمة التي تكون فيها كلمة الله هي العليا، والتي تكون قادرة على متابعة أهداف الدعوة الإسلامية في الأرض، وتوفير مصلحة الإنسان والشعوب كلها، مصلحة الدنيا والآخرة.

المسؤولية الفرديّة ضرورية حتى تظل جميع الأهداف مرتبطة بواقع الحياة الدنيا من ناحية وبمستقبل البشرية في الدار الآخرة، وتظل المسيرة في الدنيا مرتبطة بالهدف الأكبر والأسمى للإنسان ـ الدار الآخرة ورضوان الله والجنة ـ .

ردمك : ٣ - ٤٧ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠

